الجمـــهورية الجزائريــة الديمقراطيــة الشعبيــة
REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعـــة 8 مـاي 1945 قالمـــــة
كليـــــة الآداب واللّغات
قسم اللغة والأدب العربي

MINISTERE DE L'ENSEIGNEMENT SUPERIEUR
ET DE LA RECHERCHE SCIENTIFIQUE
UNIVERSITE 8 MAI 1945 GUELMA
Faculté des lettres et langues
Département de la langue et littérature arabe

الرقم: .....

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة

الماستـر

تخصص: أدب جزائري

الخطاب ما بعد الكولونيالي في رواية "العشاء الأخير لكارل ماركس" لـ "فيصل الأحمر"

مقدمة من قبل:

الطالب (ة): لينة حريدي

تاريخ المناقشة: / 06 / 2025

أمام اللجنة المشكلة من:

الاسم واللقب	الرتبـة	مؤسسة الانتماء	الصفة
سعيد بومعزة	أستاذ محاضر أ	جامعة 8 ماي 1945 قالمة	رئيسا
لمياء عيشونة	أستاذ محاضر ب	جامعة 8 ماي 1945 قالمة	مشرفا ومقررا
آمنة شاوي	أستاذ محاضر ب	جامعة 8 ماي 1945 قالمة	ممتحنا

السنة الجامعية: 2025/2024

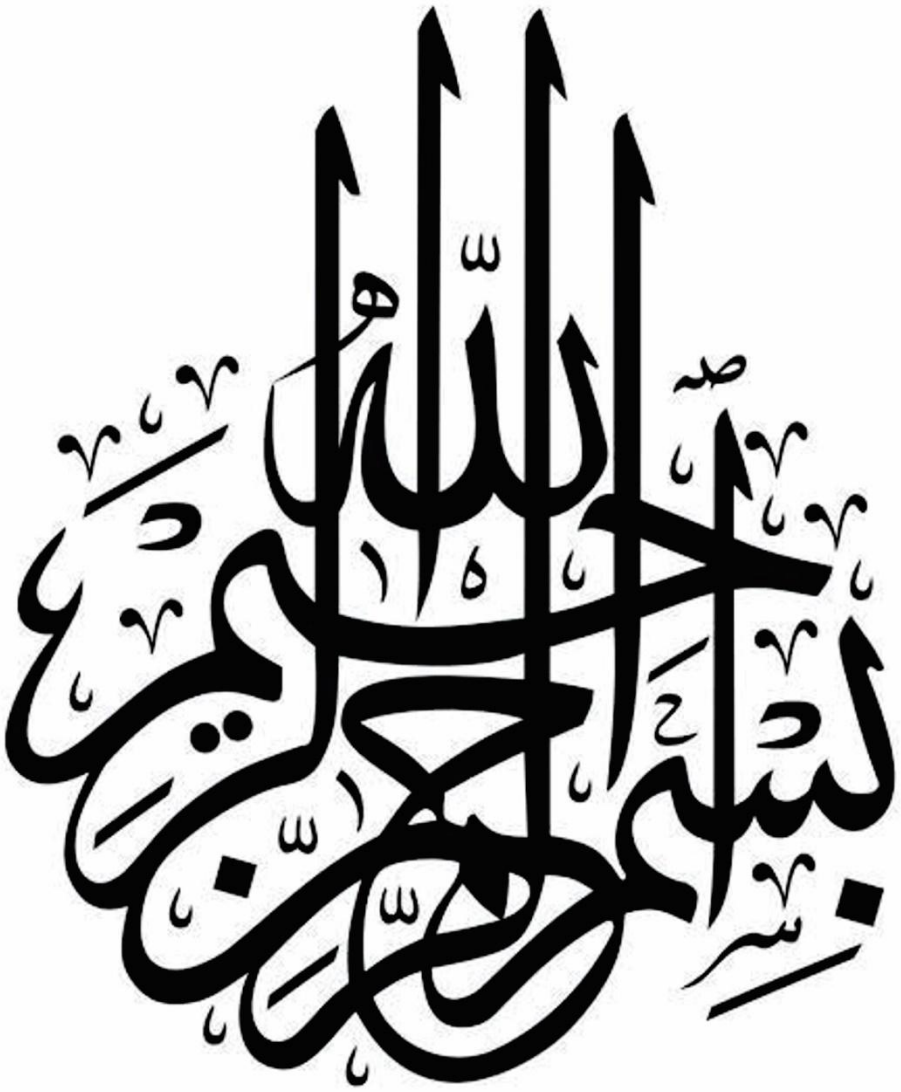
بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان:

إلى الأستاذة **عيشونة لمياء** التي كانت الضوء الذي أنار لي طريق البحث ولم تبخل علي بعلمها وتوجيهها ونقدها البناء. إلى التي غرست في نفسي روح المثابرة والدقة العلمية أستاذتي الفاضلة لك مني أسمى آيات الشكر والعرفان فما كان لهذا العمل أن يكتمل لولا دعمك وتوجيهك جزاك الله كل خير ووفقك لما فيه من العطاء والتمييز.

لينة

الإهداء:

"وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون"(التوبة 105).

العزيز الذي حملتُ اسمه فخرًا، وإلى من كرّمه الله بالهبة والوقار، يا من حصد الأشواك عن دربي وزرع لي الراحة... إلى أبي.

لم ينحنِ ظهر أبي مما كان يحمله، بل انحنى ليحمل عني. وكنتُ أحجب عن نفسي مطالبها، فكان يكشف عما أشتهي الحجب. شكرًا لكونك أبي.

إلى الراحلة عن حياتي، الحاضرة في قلبي،

إلى من دأبت أناملها على تقديم لحظات السعادة،

إلى من تحملت الأشواك لتحميني وتمهّد لي طريق العلم،

إلى من احتوت مسيرتي وتفاصيل حياتي...

يا صاحبة القلب الكبير، كنتُ أتمنى وجودك في حياتي في هذا اليوم المميز بالنسبة لي.

والدتي الحبيبة، رحمكِ الله وأسكنكِ فسيح جناته.

إلى أمي الثانية،

إلى من احتضنتني بكل طيبة وحنان، فكانت أكبر داعم لي في هذه الحياة،

الزهرة"، حفظكِ الله وأبعد عنكِ كل سقم".

إلى من احتضن حلمي، وجاد عليّ بوقته، وأكرمني بفضله،

إقرارًا مني بجميله، واعترافًا بحقه،

إلى من كان خيرَ عونٍ لي وسندًا، وكان الأولَ في مساندتي وتشجيعي،

أهدي تخرجي إلى زوجي.

إلى سندي والكتف الثابت، الذين إن مالت الدنيا لا يميلون،

ملهمي نجاحي، إلى من شددتُ عضدي بهم،

فكانوا لي ينابيع أرتوي منها،

إلى خيرة أيامي وصفوتها...

إلى إخوتي: وائل، عبير، نور الهدى، محمد.

إلى عائلتي الثانية: أمي عائشة وأبي محمد،

أطال الله في عمرهما ومنحهما الصحة والعافية.

إلى زهرة حياتي ونور عيني،

إلى من جعلت لكل تعب معنى، ولكل خطوة أملاً،

"إلى ابنتي الحبيبة "إيلاف،

أنتِ الحلم الذي تحقق، والنبض الذي لا يخبو.

إلى من منحوا لحياتي طعما آخر من الفرح والحنان، أنتم النور الذي يضيء دروب العمر زهور الأيام

وأمل المستقبل: تيم الله، ميسم، سند، وتين.

لينة

مقدمة

مقدمة

يعد النقد الثقافي أحد الاتجاهات النقدية الحديثة التي ظهرت مع نهاية القرن العشـــرين استجابة للتحولات الفكرية والاجتماعية والسياسية التي شهدها العالم خاصة في سياق ما بعد الحداثة. فهو يوســـع من دائرة اهتمام النقد الأدبي التقليدي لينتقل من دائرة التركيز على جمالية النصـــوص الأدبية وحدها إلى تحليل مختلف الخطابات والمنتجات الثقافية بوصـــفها تعبيرا عن بني السلطة والمعرفة والهوية والجنس والعرق والطبقة وغيرها من المحاور الاجتماعية.

ينطلق النقد الثقافي من فكرة أن الأدب والفن ليســـا معزولين عن الســـياق الاجتماعي والسـياسـي، بل هما نتاج منظومة ثقافية أوسـع تفرض رؤاها وتعيد إنتاج قيمها، لذلك يهتم النقد الثقافي بكشـف الأنسـاق المضـمرة في النصـوص التي قد تكرس الهيمنة أو تعيد إنتاج الإقصـاء والتهميش وهو يدمج بين الأدب والفلسفة وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والدراسات النسوية وما بعد الكولونيالية وغيرها من الحقول المعرفية.

تندرج النظرية ما بعد الكولونيالية ضـــمن حقل النقد الثقافي إذ يمثل أحد أبرز تطبيقاتها وتياراتها؛ فالنقد الثقافي يهتم بتحليل تمثلات السلطة والهوية والاختلاف داخل النصوص والخطابات ولا يقتصـر على الجوانب الجمالية والفنية فقط وهذا بالضـبط ما تفعله النظرية ما بعد الكولونيالية حين تدرس آثار الاستعمار على الهوية والثقافة واللغة والتاريخ في المجتمعات المستعمَرة.

كما يتشـارك النقد الثقافي وما بعد الكولونيالية في تفكيك خطاب السـلطة والكشـف عن الأنساق التي تدعم الاستعمار مثل التهميش "تصوير الآخر" (شرقي، إفريقي، آسيوي...) بصورة دونية تخدم الهيمنة الغربية. وكلاهما يهتمان بكيفية تشـــكل الهويات الثقافية في ظل علاقات القوة التاريخية والاجتماعية خصـوصـا في المجتمعات التي خضـعت للاسـتعمار، حيث يمكننا القول إن الخطاب ما بعد الكولونيالي يشـكل فرعا أو تيارا متقدما من النقد الثقافي يركز بشـكل خاص على تجربة الاستعمار وما بعده.

برزت النظرية ما بعد الكولونيالية كأحد أهم الاتجاهات النقدية المعاصـــرة التي تســـعى إلى الكشف عن آليات السيطرة والهيمنة التي تمارسها القوى الاستعمارية على الشعوب المستعمرة ليس فقط عبر الاحتلال العسكري بل أيضا عبر تكوين صور نمطية وتشويه الهويات الثقافية.

تتداخل مقاربات النقد الثقافي والخطاب ما بعد الكولونيالي في كثير من القضـايا حيث يعمد كلاهما إلى تفكيك العلاقات غير المتكافئة بين المركز والهامش، وكشـــف الممارســـات الرمزية التي أسهمت في إنتاج الهيمنة الثقافية الغربية. كما يعملان معا على إبراز أصوات المهمشين والمقموعين وإعادة قراءة النصوص من منظور مقاوم للخطاب الرسمي المهيمن.

أصـــبح الخطاب ما بعد الكولونيالي من أبرز الأدوات النقدية في دراســـة نصـــوص ما بعد الاسـتعمار، كونه يكشـف عن عمق الأثر الذي خلقه الاسـتعمار في الهوية الثقافية، وفي تشـكيل وعي المسـتعمر بذاته، حيث تتداخل مفاهيم مثل الاغتراب، الهجنة، الآخر...، وهي كلها مفاهيم مركزية أيضا في حقل النقد الثقافي.

إن هذا الموضوع يكتسب راهنيته وأهميته في ضوء التحولات التي يشهدها العالم اليوم، حيث لا تزال آثار الاسـتعمار حاضـرة في أشـكال متعددة من السـيطرة الرمزية والثقافية والاقتصـادية، مما يجعل من النقد الثقافي وما بعد الكولونيالي معا أدوات أسـاسـية لفهم واسـتيعاب ديناميات الصـراع بين المركز والهامش بين الذات والآخر، بيت خطاب الهيمنة وخطاب المقاومة.

تبرز رواية " العشـــاء الأخير لكارل ماركس "للكتاب الجزائري فيصـــل الأحمر كعمل أدبي يسـتدعي شـخصـية الفيلسـوف والمنظر الشـيوعي كارل ماركس، ليس بوصـفه شـخصـية تاريخية فحســب، وإنما كرمز فكري يتم اســتحضــاره لمســاءلة الحاضــر ومآلات الفكر الماركســي في ظل التحولات الاقتصادية والسياسية الاجتماعية في العالم المعاصر.

على هذا الأساس جاء بحثنا موسوما بـــ "الخطاب **ما بعد الكولونيالي في رواية العشاء الأخير لكارل ماركس**"، حاولنا من خلاله تتبع مقولات الخطاب ما بعد الكولونيالي في الرواية من خلال الشخصيات وأهم المقاطع السردية التي تكشف بنى الهيمنة وحيل السلطة في الرواية.

يطرح هذا البحث **إشكالية** تجليات مقولات الخطاب ما بعد الكولونيالي في رواية "العشاء الأخير لكارل ماركس"، وتتفرع عن الإشكالية الأسئلة التالية:

- ✓ فيما تمثلت ملامح الخطاب ما بعد الكولونيالي في رواية العشـــاء الأخير لكارل ماركس؟
- ✓ وما هي الآليات الســـردية والخطابية التي اعتمدها الكاتب في تفكيك خطاب المستعمر وإعادة تشكيل هوية المستعمَر؟

و**هدف** هذه البحث هو تحليل مظاهر الخطاب ما بعد الكولونيالي في رواية العشـــاء الأخير والكشف عن كيفية معالجة الرواية قضية الهوية في سياق ما بعد الاستعمار وإبراز الأساليب الفنية والخطابية التي اعتمده الكاتب في مقاومة ســـرديات الاســـتعمار الثقافية وأخيرا الاســـهام في إثراء الدراسات النقدية المعاصرة في الأدب الجزائري من منظور ما بعد الكولونيالي.

والآن ننتقل إلى **أهمية البحث** حيث تبز قيمته في كونه يتناول رواية معاصرة تعكس التحولات الفكرية في السرد الجزائري، من خلال مقاربة تعتمد مفاهيم النقد ما بعد الكولونيالي مما يفتح آفاقا جديدة لفهم علاقة الأدب الجزائري بالتراث الكولونيالي ومقاومته الثقافية. وتقتصر هذه الدراسة على تحليل رواية العشاء الأخير لكارل ماركس فقط دون التطرق إلى روايات أخرى، كما ركزت الجوانب السردية والخطابية المرتبطة بالخطاب ما بعد الكولونيالي دون اللجوء إلى مناهج نقدية أخرى.

وجاء هذا البحث مقسما إلى مقدمة وفصلين وخاتمة.

تناولنا في الفصل الأول (الإطار النظري) أهم المفاهيم التأسيسية التي ترتبط بـــ "النظرية ما بعد الكولونيالية"، وتطرقنا إلى أهم مقولات "النظرية ما بعد الكولونيالية"، ثم تناولنا مفهوم الخطاب ما بعد الكولونيالي عند "إدوارد سعيد".

أما الفصـــل الثاني (الإطار التطبيقي)، فتناولنا فيه ملخص رواية العشـــاء الأخير لكارل ماركس، ثم دراسة عنوان الرواية، وأخيرا تطرقنا إلى تجليات الخطاب ما بعد الكولونيالي في الرواية.

وذيلنا البحث بخاتمة كانت حوصلة لأهم النتائج التي توصل إليها البحث.

يعتمد هذا البحث على **منهج** النقد الثقافي للكشـــف عن تجليات الخطاب ما بعد الكولونيالي في النص الروائي، مستعينا بالمفاهيم الأساسية لهذا الحقل النقدي مثل الهجنة، الخطاب، الاستلاب.

أما **المراجع** التي قام عليها البحث فتمثلت في إســـهامات رواد النقد ما بعد الكولونيالي أمثال: إدوارد سعيد من خلال كتاب "الاستشراق" وتمثيل الآخر، و"هومي بابا" في مفهوم الهجنة و"جياتري سبيفاك" في مقولة التابع، ومن هذه المراجع نذكر:

1. إدوارد سعيد، الاستشراق-المعرفة-السلطة-الإنشاء، تر: كمال أبو ديب.
2. هومي بابا، موقع الثقافة، تر: ثائر ديب.
3. ديبيش شاكراباتي، دراسات التابع والتأريخ ما بعد الكولونيالي، تر: ثائر ديب
4. ميشال فوكو، حفريات المعرفة، تر: سالم يفوت.
5. شيلي واليا، إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، تر: أحمد خريس وناصر ابو الهيجاء.
6. رامي أبو شهاب، الرسيس والمخاتلة (خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد المعاصر النظرية والتطبيق).

في الأخير لا يســـعني إلا أن أحمد الله على فضـــله وتوفيقه في إنجاز هذا البحث، وأتقدم بشكري الخاص لأستاذتي الفاضلة **عيشونة لمياء** على دعمها وتشجيعها وملاحظاتها القيمة، كما أشكر الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة على تجشمهم عناء قراءة وتمحيص المذكرة.

الفصل الأول:

مفاهيم تأسيسية حول

النظرية ما بعد الكولونيالية

الفصل الأول: مفاهيم تأسيسية حول النظرية ما بعد الكولونيالية

المبحث الأول: ضبط المصطلحات

أولا: مصطلح ما بعد الكولونيالية

تمهيد

يشير مصطلح "ما بعد الاستعمار" أو " ما بعد الكولونيالية" إلى مجموعة من الدراسات والنظريات التي نشأت في مرحلة ما بعد الحداثة، وتأتي كردة فعل على التوجهات البنيوية وشكلانيتها التي هيمنت على الفكر في منتصف القرن العشرين. هذه العلاقة تركز على تحليل العلاقة بين الاستعمار وما بعده، وكيفية تأثيره على الثقافات والمجتمعات.

تتداخل الدراسات ما بعد الاستعمارية مع مجالات عدة مثل الأنثروبولوجيا، علم الاجتماع والدراسات الإثنية والنقد الأدبي والتاريخ وعلم النفس والسياسة والفلسفة. وهي تهتم بتحليل النصوص والممارسات الثقافية من منظور نقدي يكشف عن تأثيرات الاستعمار من بنية التفكير واللغة والثقافة ويشمل ذلك فحص الأدب الذي ظهر في مرحلة الحداثة وتحديدا في تجلياته الإمبريالية.

وهدف هذه الدراسات هو تسليط الضوء على كيفية تشكيل الخطاب ما بعد الاستعماري للهويات الثقافية، وتأثيره في قيم وإيديولوجيات الشعوب المستعمَرة، كما أن هذه النظريات تسعى إلى نقد الاستعمار ليس فقط من خلال النصوص الأدبية، ولكن أيضا من خلال النظر في العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي نشأت نتيجة لهذه التجارب الاستعمارية.

والدراسات ما بعد الكولونيالية ترعرعت على كل من انهيار الامبراطوريات الأوروبية العظمى في أربعينيات القرن العشرين، وخمسينياته وستينياته وما تلا ذلك من بروز الدراسات الثقافية

المناهضـــة للهيمنة من الدوائر الأكاديمية ومجال الدراســـات ما بعد الكولونيالية يمثل مجموعة من المناطق والطرائق من بينها:

1/ دراسة المستعمرات السابقة بعد استقلالها

هذا المجال يهتم بتحليل كيفية استجابة هذه المستعمرات لما خلفه الاستعمار من آثار ثقافية واجتماعية، أي كيف تعاملت هذه الثقافات مع الإرث الاستعماري، سواء عن طريق التكيف معه أو مقاومة أو محاولة التغلب عليه بعد فترة الاستقلال. هذه الدراسة تشير إلى ما بعد الكولونيالية باعتبارها فترة تاريخية تبدأ من نهاية الحقبة الاســتعمارية وتســتمر خلال النصــف الثاني من القرن العشــرين، حيث تطور العديد من الثقافات المســتقلة في مواجهة التحديات المترتبة على ماضــيها الاستعماري.

2/ دراسة مستعمرات أوروبا منذ استعمارها

أي الكيفية التي اســـتجابت بها لإرث الكولونيالية الثقافي أو تكيفت معه أو قاومته، أو تغلبت عليه منذ بداية الكولونيالية، وهنا تشـــير الصـــفة "ما بعد الكولونيالية" إلى ثقافات ما بعد الكولونيالية والفترة التاريخية التي تغطيها هي تقريبا الفترة الحديثة بدء من القرن السادس عشر.

3/ دراسة جميع ثقافات المجتمعات أو الأمم

من حيث علاقات القوة السياسية والثقافية، أما الفترة التاريخية التي تغطيها هي التاريخ كله، والكثير للدارسين لماهية هذا الخطاب يتساءلون فيما إذا كان الخطاب الاستعماري خطابا متجانسا كله في نفس النظرة أم لا أم أن هناك خطابات مختلفة له. ومن هنا يمكن القول بأن وجود خطابات مختلفة في فترة الاستعمار لا تصور كلها الأهالي بطرق سلبية يعود إلى اختلاف السياق الذي كتبت فيه نصوص بعينها.

ثانيا: مفهوم النظرية ما بعد الكولونيالية

قبل الشروع في تعريف ما قبل الكولونيالية يجب أن لا نغفل ثلاث صعوبات أو مشكلات يطرحها هذا التركيب. تتعلق الأولى بمصطلح الكولونيالية وأما الثانية فتتصل بالبادئة "ما بعد" عينها والثالثة بالمصطلح في صيغته المركبة.

عن الصعوبة الأولى يشير المؤرخ الأمريكي "فريديرك كوبر" إلى أن "مصطلح كولونيالي نفسه يحمل قصورا يتجاوز خصوصيات كونه نظاما تلاشى؛ لأن هذه التسمية "كولونيالي" تربط تاريخ العالم الغربي وهويته في الحضارة والتقدم بتكوينه الاستعماري، الكولونيالية يشير إلى التمييز بين بعض الشعوب باعتبارها تحتاج إلى أشكال معينة من السيطرة والمراقبة"[1] وهذا الوضع الكولونيالي لا يمكن تجاوزه كواقع تاريخي، بل إن انكاره أو تحجيمه يغدو ضربا من الطمس.

وأما الصعوبة الثانية فتتعلق بالبادئة "ما بعد" التي يتوجس بعض النقاد من توظيفها نتيجة الالتباس والتناقض الذي تحمله إن البادئة "ما بعد" لم تثر نقاشا في مصطلح "ما بعد الكولونيالية" فحسب وإنما في باقي المصطلحات والميادين الأخرى على غرار "ما بعد البنيوية" و "ما بعد الماركسية" و "ما بعد النسوية" وغيرها ولعل الإشكال الذي تنطوي عليه في مصطلح "ما بعد الكولونيالية" يغدو متعدد الأبعاد.

يرى "إيهاب حسن" أن المصطلحات التي تحتوي على البادئة "ما بعد" تعاني من عدم الاستقرار وشديدة الارتباك[2]؛ لأنها تنطوي على ضدها ونقيضها بداخلها ووفق التصور نفسه يقترح الفيلسوف الفرنسي فرانسوا ليوتار استبدال البادئة "ما بعد" إعادة حيث يرى "كم هو عبثي كل تحقيب للزمن الثقافي بمفردات (ما بعد) و (ما قبل) سابق ولاحق لسبب كونه يترك وضعية "الآن"

1 فريديريك كوبر، إشكالية الاستعمار نظرية المعرفة التاريخية، تر: كريستيان جان موجين، إدبايوت، باريس، 2010، ص40.

2 إيهاب حسن، تحولات الخطاب النقدي في ما بعد الحداثة، تر: السيد إمام، دار الرافدين، ط1، بيروت، 2018، ص12.

دون مسألة الحاضر الذي انطلاقا منه ، نفترض أننا نملك القدرة على أخذ منظور مشروع عن تعاقب كرونولوجي"[1] ومثل هذا الاقتراح يكشف إلى أي مدى كانت البادئة قاصرة ومن جانب آخر، يشير "هومي بابا" إلى أن البادئة ما بعد "تجسد الطاقة القلقة المنطوية على المراجعة وإعادة النظر"[2]. ولعل التعقيد سيزداد حينما يتعلق الأمر بمصطلح "ما بعد الكولونيالية"، فـــ "ما بعد" توحي في ظاهر الأمر بالقطيعة والانفصال بين ما هو (كولونيالي) وما هو (غير كولونيالي) كما لو كانت تعلن انتهاء الوضع الكولونيالي، لكن واقع الأمر خلاف ذلك نظرا لكونها أي ما بعد الكولونيالية، ليست مؤشرا تاريخيا يراد به التعاقب وإنما مؤشر نظري متعلق عند كثير من النقاد باستمرارية وحضور الكولونيالية في منظومات وأشكال بديلة أو متخفية.

1 جان فرانسوا ليوتار، في معنى ما بعد الحداثة (نصوص في الفلسفة والفن)، تر: السعيد لبيب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2016، ص 70.

2 هومي بابا، موقع الثقافة، تر: ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2016، ص44.

ثالثا: نشأة النظرية ما بعد الكولونيالية وتطورها

اجتاحت الفكر المعاصر – خاصة في الثلث الأخير من القرن العشرين – تيارات فكرية جاءت نتيجة لظروف وأحداث متعددة أبرزها:

1– الشعور بالإحباط والخيبة: لدى المجتمعات الغربية بسب فشل الحداثة في تحقيق السعادة المنشودة للإنسان، بدلا من ذلك أسفرت هذه الفترة على دمار شامل نتيجة الحروب العالمية والصراعات التي خلفت آثارا مادية ومعنوية عميقة على الانسان.

2– التحولات التكنولوجية وثورة المعلومات: نتيجة للتقدم العلمي والتكنولوجي الكبير، ظهرت تغيرات في مختلف المجالات، وكان لهذه التحولات تأثيرات على النظام الاقتصادي والاجتماعي أدت هذه التحولات إلى تزايد الإحساس بالغموض والقلق بشأن مستقبل البشرية. وبناء على هذه العوامل بدأت تظهر تيارات فكرية جديدة سعت إلى تفسير الواقع الجديد والبحث عن حلول لتحديات العصر ما أطلق عليه "ما بعد الحداثة"، وقد عملت هذه التيارات على انتاج مجتمع جديد لذلك فإن: "أهم ما ميز تيار ما بعد الحداثة هو التغيير في طبيعة المعرفة: حيث دخلت المجتمعات في ما يعرف بالعصر ما بعد الصناعي والثقافات ما يعرف الآن ما بعد الحداثي"[1].

وعليه يمكن القول أن أفكار ما بعد الحداثة كانت هي المؤشر على تحول هيمنة المنظومة الثقافية الغربية، من خلال "تلك الأفكار الموغلة في استبعاد الذات الإنسانية وتهميشها، فكانت من الأسباب التي أدت إلى التحولات الكبرى التي دفعت إلى التمرد على الشكل التقليدي والقيم الجمالية الكلاسيكية."[2]

1 عطيات أبو سعود، نيتشه وما بعد الحداثة، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، العدد 63، 2004، ص48-49.

2 هويدا صالح، الصورة الروائية للمثقف، مجلة العربي، وزارة الإعلام بدولة الكويت، ع 657، أغسطس 2013، ص 156.

لقد ثارت ما بعد الكولونيالية ضد جميع المفاهيم والنظريات السابقة وتمكنت من تغيير موازين القوى وإعادة التوازن لصالح ما كان مهمشا أو مبعدا ولذلك فإنه لا يمكننا أن ننكر: فعالية النظرية النقدية التي تبنتها ما بعد الحداثة كما لا يشك أحد بمشروعية دعوتها التحريرية ومحاربتهما للمفاهيم القمعية القسرية، ولا يختلف اثنان على أهمية تغيير الأسس المعرفية، وإماطة القناع عن خفايا أبنية القوى ودوافعها المتحيزة"[1]. إذ تتجلى الخطوط العريضة للنظرية النقدية كمشروع يسعى إلى دفع قضية التحرر والانعتاق من خلال جهد نظري متجه نحو الاقصاء وإسقاط الهيمنة.

يعود ظهور خطاب ما بعد الكولونيالية في الدراسات الأدبية إلى نهاية سنوات السبعينات مع صدور الكتاب الرائد لـــ إدوارد سعيد الاستشراق" وهو رأي يعتقد به الأغلبية؛ والدافع وراء ظهور هذا الخطاب هو البحث في الجوانب الثقافية والسياسية والاقتصادية وانعكاساتها وهذا بعد رحيل المستعمِر وترك بصماته وآثاره التي لم تمحى بزواله كما أن مؤلفي كتاب "دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية؛ قاموا ببداية استخدام مصطلح "ما بعد الاستعمار" من قبل النقاد في تلك الفترة، كما يشيدون بالدور الريادي لكتاب سعيد في تسليط الضوء على تأثير الاستعمار على الثقافة خاصة من خلال تحليل البعد الزمني للآثار التي خلفها الاستعمار.

عرفت موسوعة ما بعد الكولونيالية " الخطاب مابعد الكولونيالي" بأنه "الخطاب الذي تم التأريخ له مند نشر "إدوارد سعيد" لكتابه "الاستشراق" سنة 1978 في حين كانت سنة 1990 الفترة التي تحقق فيها حضوره الرسمي ضمن البحث العلمي وتذكر الموسوعة ثلاثة أعمال أساسية عملت على تأصيل الخطاب أكاديميا وهي "نظرية الاستعمار" "لآنيا لومبا" 1978، ونظرية ما

1 ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2002، ص228.

بعد الكولونيالية" لليلى غاندي" 1998، وأخيرا كتاب ما بعد الكولونيالية لـــ "بارث جيلبارث" (السياقات الممارسات- السياسات)1997.[1]

وحســـب رأي الناقد " رامي أبو شـــهاب" فإنه يمكننا أن نخلص إلى أن خطاب ما بعد الكولونيالية تعود جذوره إلى مطلع الثمانينيات في حين أن معظم الدراســات الأدبية تتفق على أن "إدوارد سعيد" هو المؤرخ الأول لهذا الخطاب في كتابه "الاستشراق"، وفكرته قائمة على التضافر بين عنصري السلطة والمعرفة اللذين هما مركز هذا الخطاب.

ومما سبق يمكن أن نستخلص أنه لا يوجد شيء يبدأ من الصفر بل إن كل فكرة أو تيار فكري جديد هو نتاج تفاعلات مع أفكار وأحداث سابقة، وهذا يشير إلى أن الظواهر الفكرية المختلفة مثل الدراســات ما بعد الكولونيالية هي في الواقع حصــيلة تفاعلات ومعارف ســابقة معاصرة لها أو بعبارة أخرى لا يتم تطوير هذه الأفكار بمعزل عن السياقات التاريخية والثقافية التي نشأت فيها.

1 رامي أبو شهاب، الرسيس والمخاتلة (خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد المعاصر النظرية والتطبيق)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2014، ص50-51.

رابعا: مقولات ما بعد الكولونيالية

1/ الاستشراق

يمكن أن يناقش ويحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق للتعامل معه بإصدار قرارات حوله وإجازة لآراء فيه وإقراره ووصفه وتدريسه والاستقرار فيه وحكمه وبإيجاز الاستشراق أسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبائه وامتلاك السيادة عليه[1]

يفضح هذا التعريف نوايا الاستشراق المبطنة، فهو وسيلة استعمارية أداتها المعرفة وهدفها فرض سيطرة أوروبا على العالم غير الأوروبي الذي نسميه مجازا ونعتبره حقيقة اسمها "الشرق"، ومن هذه القناعة يسعى إدوارد سعيد في الحديث عن العلاقة بين القوة والمعرفة، أو بعبارة أخرى أكثر بلاغة "جدلية قوة المعرفة" و"معرفة القوة" وقد انطلق سعيد من مقولة فوكو الشهيرة " إن الحقيقة تعتمد على من يسيطر على الخطاب"، وقد سيطرت عليه أوروبا فصاغت مقولاتها عن الشرق على أنها الحقيقة المطلقة المكتسبة من خلال معرفة وثيقة ووافية بالشرق وها هو "كومر" يصرح "إن المعرفة بالعروق المحكومة أو الشرقيين هي التي تجعل حكمهم سهلا ومجديا فالمعرفة تمنح القوة ومزيد من القوة يتطلب مزيدا من المعرفة"[2]

صاغ الغرب مقولاته الاستشراقية ومعارفه المطلقة عن "الشرق" في صيغ حاسمة وأحكام نهائية وعبارات قاطعة ' تستمد مصداقيتها من ذاتيتها ولا تحتاج إلى برهان خارجي' فمجازات الخطاب الاستشراقي هي جميعا خبرية وذاتية البرهان والزمن الذي تستخدمه هو الزمن السرمدي.

---

1 إدوارد سعيد، الاستشراق-المعرفة-السلطة-الإنشاء، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1984، ص30.

2 المرجع نفسه، ص72.

وهي تخلق انطباعا بالتكرار والقوة وهي دائما مناظرة لمعادل أوروبي' محدد أحيانا وغير محدد أحيانا أخرى ' لكنها ذات مرتبة أدني انطلاقا من هذا المعادل[1]

كل ما يأباه الرجل الغربي على نفسه يسقطه على الآخر الشرقي، وبالتالي فالرجل الغربي عقلاني منهجي حكيم شجاع ومهذب، أما الآخر الشرقي فهو لا عقلاني ولا منهجي وجبان وساذج وفظ وشهواني، ولا يتورع الخطاب الاستشراقي عن التفكير الاختزالي والتعميم المفرط والأحكام الجازمة لذا لا يتورع عن اختزال ثلاثة أرباع البشرية (ونعني سكان إفريقيا، آسيا أمريكا الجنوبية) وعلى امتداد قرون في هذه الصور النمطية والمكررة ولا يتجدد الخطاب الاستشراقي عبر العقود والقرون إلا من خلال ترسيخ وتأكيد ومضاعفة هذه الأنماط.

2/ دراسة التابع

يُنظر إلى دراسات التابع التي ازدهرت في مطلع الثمانينيات، على أنها أحد أهم الميادين المركزية في النظرية ما بعد الكولونيالية وقد تشكلت نتيجة ما حققته من كشوفات نقدية متعلقة بالتاريخ والتمثيل لحظة حاسمة في تاريخ النظرية.

ويمكن أن نشير أن هذه الدراسات قد استلهمت بعض المفاهيم والرؤى التي اجترحها المفكر الايطالي الماركسي "أنطونيو غرامشي" حول قضايا التابع والهيمنة، ويعني التابع عنده تلك الجماعات التي تقع تحت هيمنة الطبقات الحاكمة داخل المجتمع وتشمل الطبقات المهمشة من المزارعين والعاملين وغيرهم من الجماعات التي تحرم من الوصول إلى السلطة المهيمنة، وبما أن تاريخ الطبقات الحاكمة يتحقق في إطار الدولة، والتاريخ من هذا المنطق هو تاريخ الدول والجماعات المهيمنة فقد كان غرامشي معنيا بكتابة تاريخ الطبقات المهمشة[2]

1 إدوارد سعيد، الاستشراق-المعرفة-السلطة-الإنشاء، المرجع نفسه، ص121.

2 رضوى عاشور، الصوت، فرانز فانون-إقبال أحمد-إدوارد سعيد، ألف مجلة البلاغة المقارنة، ع25، 2005، ص319.

اقتنص المؤرخ الهندي "راناجيت غوها" هذا التصور وطوره من أجل البحث بشكل واسع في تاريخ الهند وجنوب آسـيا إبان الاحتلال البريطاني وفتح ملفات كتابة التاريخ والماركسـية والقومية ووضـع الهامش رفقة مجموعة من الباحثين هم "شـهيد أمين، ديفيد غياتري سـبيفاك، سـوزي كارو، سميث سركار، أجاي سكاريا.

سـعى هؤلاء إلى نقد التاريخ النخبوي وعملوا على تشـييد "مقاربة في كتابة التاريخ مناهضـة للنخبوية، وكانت في هذا الجانب تتقاسم الكثير مع مقاربات التاريخ من أسفل"[1]

وبالنسبة للمنظر الهندي ديبش شاكرابارتي فان دراسات التابع بوصفها أحد أهم مشاريع ما بعد الكولونيالية قد تأسـسـت في المقام الأول على كتابة التاريخ، حيث ركزت جهودها على إعادة كتابة التاريخ بعيدا عما خطه المؤرخ الكولونيالي، بل بعيون التابع المهمش من خلال كشـف أدوار القطاعات الريفية من فلاحيين ونسـاء في تاريخ المرحلة الكولونيالية، وفي مقالها "هل يستطيع التابع أن يتكلم"؟، وجهت جياتري سبيفاك نقدا قويا لغياب قضـايا الجندر عن دراسات التابع وشددت على ضـرورة إعادة تفحص دور المرأة وأوضـاعها في الخطابات السـابقة، وأكدت أن إلقاء الضـوء عليها وإبرازها جزء من المهام النظرية والعملية الواجب إنجازها.

1 ديبيش شاكراباتي، دراسات التابع والتأريخ ما بعد الكولونيالي، تر: ثائر ديب، أسطور للدراسات التاريخية، ع3، يناير2016، ص12.

المبحث الثاني: مفهوم الخطاب ما بعد الكولونيالي

أولا: مفهوم الخطاب

يعد الخطاب وسيلة للتواصل بين فئات المجتمع تختلف لغته للمجلات متعددة، "ترجع المفردة الفرنسية **Discours** إلى العربية بمفردات من قبيل: المقال والحديث، النص، الخطاب، مثلما نجد ذلك في محاولة "علي حرب" في الموسوعة الفلسفية العربية أن اعتمد على كلمة مقال، وهذا لاعتبارات عديدة منها؛ أن الترجمات العربية نسبيا اعتمدت كلمة المقال، كما أن الخطاب معروف في الدراسات الايديولوجية، أكثر منه في الدراسات العلمية والفلسفية"[1]، إذن فإن الخطاب لا ينحصر إلا في معنى واحد بل يحمل معاني عديدة، متعلقة خصوصا بارتباط الخطاب بالغرض أو الشأن، كما هو متعلق أيضا بمجالات مختلفة كاللغة والسياسة والدراسات التاريخانية والأنثربولوجية.[2] فهذا المفهوم يبرز لنا لأن الخطاب علاقته وطيدة بالمجال المعرفي الذي نشأ فيه؛ فهو مجموعة القواعد والإجراءات اللازمة لإنتاج لغات خطاب بعينها، ولغات الخطاب أو مجموعات الجمل الخبرية نفسها، فلغات الخطاب مجموعات مجازة لها بعض التأثير المؤسسي، إذ يعني أن لها تأثيراً قويا على الطريقة التي يتصرف بها الأفراد والأفكار التي في أذهانهم.

وما يمثل حدود الخطاب يعد غامضاً تماما، بالتالي يمكن القول إن لغات الخطاب هي مجموعة من العبارات الخبرية ذات التأثير المتشابه؛ أي أن ما يجمعها معاً ضغط مؤسسي ما، أو تشابه الأصل أو السياق.

---

1 بغورة الزواوي، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، بيروت، 1999، ص87.

2 ينظر: محمد بن سباع، تحليل الخطاب عند ميشال فوكو، مجلة دراسات، منشورات جامعة قسنطينة 2 – عبد الحميد مهري، مج 5، ع 1، جوان 2014، ص133.

في كلام آخر، فإن الخطاب قد عُرف في القرون الوسطى على أنه مجموعة من الجمل الخبرية المتباينة الخواص "أي العبارات والنصوص والإيماءات والتصرفات التي كانت مقبولة باعتبارها تصور جوهر الأنوثة في العصر الفيكتوري: التواضع والحذو والإيثار".[1]

ويفيدنا قول "ميشـــال فوكو" في ذلك "وأخيرا، بدلا من أن أَضـــيق من المعنى الفضـــفاض والواســـع للفظ خطاب أعتقد أني ضـــاعفت وأكثرت من معانيه: فهو أحيانا يعني الميدان العام والمجموع العبارات، وأحيانا أخرى مجموعة متميزة من العبارات."[2] في هذه الجمل قد يحدث اختلاف مما يغير في الحقل المعرفي، فيتضح لنا أن الخطاب هو مجموع العبارات التي تتعلق بموضوع واحد.

اتضح لنا من خلال هذا المفهوم أن للخطاب مكوناته الخاصة السردية التي نتعرف عليها من خلال سرديات الخطاب التي تتكون من:

من حيث صيغته: دراسة طريقة نقل الحوادث، حيث يميز بين الأسلوب المباشر والأسلوب غير المباشر، وبين محكي الأقوال ومحكي الحوادث.

من حيث زمنه: دراسة أنواع العلاقات بين زمن السرد أو الخطاب التخيلي وزمن الحكاية أو العالم التخيلي.

من حيث رؤاه: دراسة أنواع التبئير والرؤية السردية الخاصة بأشكال ظهور السارد، كذات للتلفظ."[3]

1 سارة ميلز، الخطاب، تر: عبد الوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2016، ص74_75.

2 ميشال فوكو، حفريات المعرفة، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، لبنان، 1987، ص76.

3 محمد بوعزة، تأويل النص من الشعرية إلى ما بعد الكولونيالية (البلاغة وتحليل الخطاب)، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، بيروت، ماي 2018، ص22.

ثانيا: الخطاب عند ميشال فوكو

نجد مؤلفات ميشـال فوكو لا تخلوا من كلمة خطاب، حتى وإن اكتفى بأن يشـير ويرمز إليه فنصوصه شديدة التعلق بهذه المفردة للدرجة أنه يتعمق في وصفها[1]، وعليه نشير إلى قول "ميشال فوكو" الذي يتحدث فيه عن الخطاب على أنه ميدان واسـع يمكن تعريفها بشـتى المفاهيم، وعليه فهو يحتوي على مجموعة من المنطوقات منها المكتوبة ومنها الملفوظة، فكلاهما يختلفان في التعبير ومسـتويات النطق، نذكر قوله: "... في تبعثرها كأحداث وفي اختلاف مسـتوياتها. قبل أن نتناول بثقة نفس علما ما من العلوم، أو بعض الروايات أو الخطابات السـياسـية، أو عمل مؤلف ما، أو كتابا من الكتب فإن المادة التي سـيكون علينا مواجهتها، في حيادها الأول. هي على العموم، عبارة عن ركام من الأحداث داخل فضاء الخطاب."[2]

وقد أصر ميشال فوكو أن الخطاب عبارة عن أعداد متشابكة من المنطوقات التي بها توضح وجوه الخطاب، ففي هاتين المفهومين قد بين لنا ميشـال فوكو أن التشـكيلة الثقافية تكون بوجود المنطوق فهو الوحدة الأساسية التي بفضلها يتكون الخطاب.

من أنجح طرق التفكير التي وضعها فوكو في الخطاب:

"أن لا نعتبره مجموعة من علامات أو امتداد نصيا، بل "ممارسات تشكل الموضوعات التي تتحدث عنها". وبذلك فالخطاب شيء ينتج شيئاً غيره [كلام، تصور، معنى] لا شيء موجود في داخله ويمكن تحليله على حدة، ويمكن اكتشـاف بنية منطقية ناتجة عن نسـقية الأفكار والآراء والتصورات وطرق التفكير والسلوك والتي تنشأ في سياق بعينه، ونتيجة لما يترتب على طرق التفكير والسـلوك هذه."[3]، يعني "ميشـال فوكو" في قوله هذا أن لا نجعل الخطاب ينحصـر في دائرة الجمل

1 محمد بن سباع، تحليل الخطاب عند ميشال فوكو، مرجع سابق، ص 133.
2 ميشال فوكو، حفريات المعرفة، مرجع سابق، ص26.
3 سارة ميلز، الخطاب، مرجع سابق، ص 30.

والعبارات بل ينحصر في الموضوع في حد ذاته والمكان الذي أنشأ فيه؛ أي إذا كان مكان المؤلف مكان حرب ودمار فسياق الخطاب يكون عن الدماء والقتل والهزيمة والهيمنة، ونكتشف من خلاله سلوك الفرد وتفكيره.

يتبين لنا "أن الخطاب لا يأتي من الفراغ بل هو في صـــراع دائم مع لغات خطاب غيره وممارســات اجتماعية أخرى تثريه بمســائل الحقيقة والســلطة؛ ففي قول فوكو: "أود أن أحاول أن أستكشف كيف صنع اختيار الحقيقة هذا الذي سجنا في داخله ونجدده باستمرار، وكيف تكرر وتجدد وأزيح."[1]، يتضـــح لنا من خلال قوله أنه يعارض أي خطاب وفكر يقوم على الحقيقة بل يدعم الذي يكون مساهما في بناء بلد ومجتمع جديد متطور.

لأنه يؤمن بالخطاب الذي يهتم بالآليات التي تنتجه ويكون داعما للتمويل المؤسسي، وتوفر له الدولة المباني والموظفين ويحترمه الأهالي جميعا، بينما يعامل الآخر بارتياب ويوضـــع على هامش المجتمع بالمعنيين المجازي والحرفي على سواء. إذن فالسلطة عنصر أساسي في مناقشة الخطاب، ولفوكو دور كبير في إعادة النظر في نماذج السلطة، وبدلا من أن نظل على فكرة أن السلطة هي امتلاك (لأن الفرد يتخذ السلطة باب للسيطرة والاستيلاء على أملاك غيره) أو في إطار مخالفة حقوق الغير أي في أن يفعل أحد الناس ما يرغب به، كما في الليبراليين والماركسيين أن السلطة تحددها علاقات اقتصادية.[2]

لقد سعى فوكو جاهداً للتوافق مع التعقيدات والممارسات التي يمكن جمعها ضمن مصطلح سلطة، وهو ويطلق عليها (الفرضية القمعية) التي في نظرها أن السلطة ماهي إلا قمع الناس من تحقيق رغباتهم وتقييد حريتهم؛ فالســلطة إذا لم تكن تفرض قوتها الســلبية وقمع الفرد عن فعل ما يريد فمنه ندرك أنها فعل كلامي يخضع لمضاربات عدة، ومن هنا نستخلص تحليل فوكو للسلطة

1 سارة ميلز، الخطاب، مرجع سابق، ص30.

2 ينظر: المرجع نفسه، ص 32.

على أنها تتفتت في العلاقات الاجتماعية، وتنتج أنماط عدة من خلال السلوك كما أنها تقيد السلوك وهذا النموذج مثمر جدا للسلطة مما يجعل المفكرين متطلعين إلى سبل التفكير في الخطاب.[1]

نجد قول فوكو الذي يجمع فيه بين السلطة والمعرفة، على أن كل معرفة لدينا ناجمة عن تأثير صراعات على السلطة، ولتقديم برهان على ذلك هو أن ما يدرس في المدارس والجامعات ناتج عن صراعات على شيء واحد. فالمعرفة هي مجموعة أشياء خضعت للسلعة أو بمعنى آخر فهي العملية التي تتكون من خلالها الذوات بعد الخضوع إليها، فمثلا عند بحثك في المكتبة عن موضوع قائم على المرأة فستجد مواضيع تتناول قهر المرأة والسيطرة عليها فهي تبين لنا ما تعينه المرأة من خضوع وتجبر.

وقد وصف لنا فوكو أن الصلة بين إنتاج المعرفة والخضوع إلى السلطة بما يسميه بـ السلطة/ المعرفة. وغالبية المفكرين الذين يرون بأن معظم الأفراد تقهرهم السلطة،[2] ولكن فوكو يعتبرهم نتاج عن علاقتهم بالسلطة ونوضح ذلك من خلال قوله الآتي:

"لا ينبغي اعتبار الفرد نواة أولية... تنشأ حولها السلطة... الحقيقة أن من النتائج الرئيسية للسلطة أن بعض الأجسام وبعض الإيماءات وبعض لغات الخطاب وبعض الرغبات تحدد هويتها وتنشأ باعتبارها أفرادا."[3] فيعني في قوله أن الفرد قد تشكل بفضل السلطة، أو أن السلطة أسهمت في تشكيل الأفراد وتوجهاتهم الفكرية.

1 ينظر: سارة ميلز، الخطاب، مرجع سابق، ص 32.
2 ينظر: المرجع نفسه، ص 34.
3 المرجع نفسه، ص 34

يبين لنا فوكو بأن السلطة تحقق منظورا عالميا بامتلاكها المعرفة فنجد في قوله: "تخلق ممارسة السلطة بحد ذاتها، موضوعات معرفية جديدة، وتتسبب بانبثاقها، كما تراكم مجموعات جديدة من المعارف".[1]

فعند معرفتنا للخطاب عند فوكو فهو يتحد عن الخطاب الإعلان الدعائي الذي نعني به المعالجة الشكلية والأولية للموضوع في كل من الكلام والكتابة، ونجد الخطاب العنصري الذي يكون باختلاف اللفظ والمعاني مثلا خطاب بين عالم النفس الاجتماعي وفيلسوف، ولنختصر الكلام بأن الخطاب يتواجد في فترة معينة لأمة ما يتمظهر بوصفه مجموعة من القواعد والأعراف التي تحكم عمل المجتمع. وتتم مراقبة تشكيلته وتنظيمه وتفكيك شيفرات السلوك من طرف مؤسسات اجتماعية، ويعمل الخطاب على تبيين الأفكار السائدة التي تضطلع عليها مراقبة صارمة تمارس داخل المجتمع تسمى "المشتملية" (وهو سجن ذو تصميم دائري يُراقب من جانب مأمور واحد يقف في مركز السجن) . التي تكون تحت إشراف النخبة.[2]

بعد انتهائنا من معرفة مفهوم الخطاب عند "ميشال فوكو" نقوم بإبراز مفهوم الخطاب عند "إدوارد سعيد"

1 شيلي واليا، إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، تر: أحمد خريس وناصر ابو الهيجاء، أزمنة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2007، ص 31.

2 ينظر: المرجع نفسه، ص32.

ثالثا: الخطاب عند إدوارد سعيد

تمكن سعيد من خلال مزجه بين التقليد الماركسي القديم والممارسة النقدية المعاصرة التي عدها أمثلة تطبيقية لتوضيح مسألة تحليل الخطاب، من أجل فهم العلاقة الامبريالية والثقافة وهذه القرارات قادته أن يعتبر الروايات الحقيقة للتاريخ ماهي إلا نتائج الاستراتيجيات الثقافية التي أعدت للحفاظ على السلطة والهيمنة، فنظرياته يستند بها عن طريق المفكرين من أبرزهم ميشال فوكو وأنطونيو غرامشي ... وغيرهم. مما حفزته على امتلاك الشجاعة والتحدث بحرية تامة حول القضايا التي تؤثر فينا أكثر من غيرها، ولاسيما تلك المتعلقة بالمجتمع السياسي. [1]

يدين كتاب الاستشراق دينا كبيرا على الكثير من الكتاب من بينهم فوكو الذي كان له فائدة كبيرة على كتاباته القائم موضوعها حول السلطة والمعرفة، ذلك أن سعيد ينظر إلى التمثيلات الفوكوية المتعلقة بالنظام، والاستقرار، والسلطة التنظيمية للمعرفة بوصفها المفهوم المؤسس لكل مؤسسات الحكم.[2] ويستثمر سعيد "المنتظم الفوكوي ليضع سويًّا مجموعة متباينة من النصوص السياسية، والأدبية والألسنية، والإنثوغرافية والتاريخية ليعين خطاب الاستشراق ولا يقف حاذيا حذو فوكو، عند هذا الحد بل يمضي لينظر في البنى التي تكمن وراء إنتاج النصوص والملفوظات التي تبدو ضرورية لفهم استراتيجيات المعرفة والسلطة والمراقبة التي هدفت إلى إنتاج الشرق."[3]، هنا يتبين لنا بأن سعيد اتبع طريقة فوكو لكنه لم يجاريه في ذلك كثيرا أخذ فقط الأساسيات التي تمكنه من بناء خطاب يضع في رسالة قائمة على السلطة والمعرفة مع مراقبة انعكاساتهم و تأثيرهم على الشرق.

نجد أيضا أن إدوارد سعيد قد فسر لنا معنى الاستشراق في ثلاث أقسام:

1 ينظر: شيلي واليا، إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، مرجع سابق، ص 30.
2 ينظر: المرجع نفسه، ص 31.
3 المرجع نفسه، ص 33.

الأول: وهو الأسهل يعرف الاستشراق بوصفه دراسة أكاديمية للشرق بوساطة باحثين غربيين بمعنى آخر أن هذا النمط من الدراسة ينتج عنه قواما معرفيا من استثمار الإمبرياليين الغربيين الذي يعرفون بالأكثر براغماتية ونفعية كوسيلة لضمان السلطة.

أما **الثاني:** الذي يوضح لنا فيه باهتمامه الأكاديمي للغات الشرقية الذي عاد له بالنفع عند إدخال الانجليزية لمآرب سياسية، ويضيف إلى زيادة توافد دراسة الشرق في القرن التاسع عشر مع ذروة التوسع الاستعماري ومنه فهي بداية توافد المعرفة حول الشرق الناتج عنها نشأة خطاب السلطة.

ثالثا: التوصل إلى حدود إبستمولوجية وأنطولوجية بين الشرق والغرب التي توافق صورة النمط من منظور راقي وهمجي، والفوقي والتحتي، والذي تفكيره سليم، وشاذ التفكير.[1]

لذا يتضح لنا بأن إنتاج الخطاب عند إدوارد سعيد بدأ من كتابه الاستشراق، وقد استفاد "إدوارد سعيد" من بحوث "ميشال فوكو" حول الخطاب في إثبات فرضية أن المعرفة الغربية متورطة مع السلطة؛ لأنها تخدم القوة كما حدث مع علم الاستشراق والأنثربولوجيا اللذين تورطا في خدمة المد الاستعماري.

1 ينظر: شيلي واليا: إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، مرجع سابق، ص 41_42.

رابعا: الخطاب ما بعد الكولونيالي

يعد الخطاب ما بعد الكولونيالي وجهة نقدية جل اهتمامها هو دراسة آثار ومخلفات الاستعمار التي مست الهوية والثقافة في المجتمعات المستعمرة، ويركز على فهم ومعرفة الإيديولوجيات الطاغية في تلك البلدان المستعمَرَة قبل الاستيلاء عليها، أما الجانب الآخر فيكون عند تحريرها من الاستعمار بالكشف عن المخلفات التي تركها المستعمِر على المناطق المهمشة، ومن أبرز أعلام هذا التوجه هم: هومي بابا، غياتري سبيفاك، وإدوارد سعيد.

لا نعني بالخطاب ما بعد الكولونيالي مجرد مجموعة من النصوص متشابهة في موضوعها، بل مجموعة من الأعراف والأحكام أنتجت تلك النصوص والتنظيم المنهجي للفكر الذي قامت عليه. يصف "إدوارد سعيد" في كتاب "الاستشراق" السمات الخطابية لذلك الكم من المعارف الذي أنتجه العلماء والرحالة والشعراء وغيرهم... الذين برز ظهورهم في القرن التاسع عشر والذي مثل الشرق باعتباره مستودعاً لمعارف الغرب، لا باعتباره مجتمعا وثقافة تعمل لنفسها. فالشرق أنتج في علاقته بالغرب وكان يوصف من حيث اختلافه عن الغرب، يقول أحد المستعمرين الذين كانوا يكتبون عن البلدان المستعمَرة أن:

"ينتجوا ما يشيرون إليه هم أنفسهم باسم "معارف". وكانت مهمتهم... دمج واقع بعينه في سلسلة من الأنساق المعرفية المتشابكة – جمالية وجغرافية وتعدينية وزراعية ونباتية واقتصادية وأنثربولوجية وصفية وما إلى ذلك."[1]

نجد وصف "بيتر هولمز" للخطاب الاستعماري بأنه:

"مجموعة من الأعراف اللغوية موحدة في تداولها العام في إدارة العلاقات الاستعمارية... في أساس فكرة الخطاب الاستعماري... وهناك افتراض بأن بقاعاً شاسعة من العالم غير الأوروبي

1 سارة ميلز، الخطاب، مرجع سابق، ص121.

أنتجت في الفترة الاستعمارية من أجل أوروبا من خلال خطاب يدمج مجموعات من التساؤلات والافتراضات ومناهج التحليل وأنماطاً من الكتابة والرموز."[1]

"إذ يوجه كثير من النقد للنظرية ما بعد الكولونيالية من أبرزه نقد كل من أحمد وسان جوان، ومن أهم ما وجه من نقد لما كتبه سعيد عن الخطاب هو أنه وصف الخطاب الاستعماري بأنه مجموعة متجانسة من النصوص متضمنة رسالة واحدة بسيطة عن البلد المستعمَر. فهذا من عيوبه أنه يوحى بأن المعرفة "الاستشراقية" قوية وأنه يقضي على كل مقاومة للبنى الخطابية."[2] نعني بذلك أن العديد من النقاد الذين ألقوا نظرة على نظرية الخطاب الاستعماري، وأنها وصف لما يحدث لهم أثناء الاستعمار، وبدوره هو رسالة للأفراد المهمشة.

وفي الأخير يمكن القول أن الخطاب ما بعد الكولونيالي بداية من فوكو الذي وضحه كمفهوم للقوة ناتجة عن الحقيقة من خلال ممارسة السلطة، ويُظهر لنا سعيد بأن هذا الفكر قد استعان بالخطاب الاستشراقي ليمثل لنا هيئة الشعوب المستعمَرة، يبرزها في تمثيل مشوه لما كانت تفعله من سيطرة وهيمنة. إذن فإن غاية هذه النظرية هي تفكيك الخطاب المسيطر الذي يتماشى مع السلطة، وتمكين المستعمَرين من تمثيل حياتهم مع إعادة بناء التاريخ من جديد.

1 سارة ميلز، الخطاب، مرجع سابق، ص121.

2 المرجع نفسه، ص133_134.

الفصل الثاني:

تجليات الخطاب ما بعد الكولونيالي

في الرواية

الفصل الثاني: تجليات الخطاب ما بعد الكولونيالي في الرواية

تمهيد

تندرج رواية العشـاء الأخير لكارل ماركس للكاتب الجزائري فيصـل الأحمر ضـمن الروايات الفلسـفية ذات البعد الفكري العميق، حيث تتناول بإسـهاب إشـكاليات ما بعد الاسـتعمار من خلال مناظرة متخيلة بين الراوي الجزائري وكارل ماركس، الذي يستحضر في الرواية لا كشخصية تاريخية فحسب بل كرمز للفكر الغربي النقدي ذاته.

ينطلق الكاتب من فرضية أساسية مفادها أن الاستعمار وإن رحل عسكريا فإنه خلف وراءه إرثا ثقيلا من الهيمنة الثقافية والفكرية ما يزال يطبع حياة الشعوب المستعمرة ومن هنا تطرح الرواية تسـاؤلا مركزيا حول العلاقة المعقدة بين الفكر العربي الإسـلامي والفكر الغربي الذي طالما مثل مرجعية للحداثة، لكنه في الوقت ذاته كان أداة للهيمنة الاستعمارية.

من خلال حوار رمزي يدور أثناء "العشـاء الأخير" مع كارل ماركس يسـتعرض الراوي أزمة المثقف العربي الجزائري في مرحلة ما بعد الاسـتعمار بين الانبهار بالحداثة الغربية بكل ما تحمله من مبادئ العدالة والمسـاواة والحرية، وبين وعيه العميق بتناقض هذه المبادئ مع تاريخ الهيمنة الاستعمارية. كما تنتقد الرواية بشكل خاص خضوع بعض النخب الفكرية في العالم العربي لتبني النظريات في ملاءمتها للواقع الثقافي والاجتماعي الخاص بالمجتمعات العربية.

تعكس الرواية كذلك صراع الهوية الذي تعانيه الشخصية العربية، حيث يبرز الدين كعنصر أسـاسـي في تشـكيل الهوية الحضـارية، في مقابل نظرة الغرب التي تعتبر الدين غالبا عائقا أمام الحداثة.

تؤكد الرواية أن الإسـلام في الحالة الجزائرية لعب دورا محوريا في مقاومة الاسـتعمار وتثبيت الهوية الوطنية.

اعتمد فيصـــل الأحمر في هذه الرواية أســـلوب الحوار الرمزي المفتوح على التأويلات، مع توظيف فلســفي عميق لمفاهيم ما بعد الاســتعمار والهيمنة الثقافية، ما يجعل الرواية نصــا غنيا في سـياق النقد الثقافي المعاصـر، ومادة خصـبة لدراسـة إشـكاليات الهوية والاسـتلاب الثقافي ودور المثقف في مجتمعات ما بعد الاستعمار.

أولا: قراءة في العنوان

يحيل عنوان رواية "العشاء الأخير لكارل ماركس" للروائي "فيصل الأحمر" على لوحة "العشاء الأخير" للرسام الإيطالي "ليوناردو ديفينشي"، وقد صورت هذه اللوحة العشاء الأخير للمسيح مع طلبته في عيد الفصح اليهودي حيث تم اعتقال المسيح وصلبه بعد هذا العشاء.

أما بالنسبة للعشاء الأخير الذي أقيم على شرف الفيلسوف "ماركس" فقد كان آخر عشاء له في الجزائر عند زيارته لها، فكان هذا العشـــاء ثقافيا بامتياز، طرحت فيه أفكار "ماركس" عن البرجوازية والديمقراطية، والشـيوعية والطبقية في أوروبا. وفي هذا العشـاء "تطرق ماركس" إلى حقيقة الوجود الفرنسـي في الجزائر، فأسـال العرق البارد للحاكم الفرنسـي الذي تظاهر بالهدوء، من خلال تقديم تبريرات شـــرعية في منظوره للوجود الفرنســـي في الجزائر، الذي كان يرمي لتمدين الفرد الجزائري، بعد أن وصفته الحضارة الغربية بالهمجي.

إن ماركس كان صـريحا جدا في رأيه الذي يهدف إلى فصـل الدين عن الدولة "ما أسـعدنا ونحن نحظى بســماع هذا الكلام منك مســتر ماركس، بســماع هذا الكلام قد نكون محظوظين ومحظيين بشكل ما في هذا العشاء الذي يشبه قليلا العشاء الأخير للمسيح.

ابتسم ماركس وقال:

هل تنوون صلبي في اليوم الموالي لثورتي الفكرية هذه.... هههه.

انفجر الجميع ضاحكين. فيما ابتسم الحاكم"[1]

اعتمد الكاتب في هذه الرواية على ما يعرف بالترابط أو التقاطع الدلالي حيث عقد مقارنة بين نبوة المسيح ونبوة "ماركس"، فالعشاء لا يشير بالضرورة إلى العلاقة الودية بين الحاضرين، ويظهر ذلك جليا من خلال تطرقه إلى خيانة اليهود للمسيح ويكشف في الوقت ذاته عن خيانة أفكاره من طرف أعدائه الذين أظهروا له المحبة وأظهروا له السوء، فكان هذا العشاء فرصة للإطاحة بـــ "ماكس" الذي مرغ أنف الحاكم الفرنسي في التراب بعد أن طرح جملة من الأسئلة المشفرة التي تهدف إلى إزاحة الستار عن حقيقة الوجود الفرنسي في الجزائر.

ثانيا: شخصيات الرواية كأقنعة سردية

ماركس: يمثل ماركس صوت الفكر الثوري الراديكالي الذي يحلم بأحداث قطعية جذرية مع النظام السياسي والاقتصادي المورث عن المستعمر، كما يكشف فشله في تجسيد مشروع ثوري حقيقي بعد الاستقلال، إذ أن الشعارات الكبرى اصطدمت بواقع معقد ومقاومة شرسة من سلطة ما بعد الاستعمار. رغم وعيه السياسي العميق يبقى ماركس معزولا عن العامة غير قادر على تحويل أفكاره إلى حركة شـــعبية وهو ما يشـــير إلى أزمة المثقف ما بعد الكولونيالي الذي يدور في حلقة مغلقة من التنظير دون تغيير فعلي.

محمد: يمثل محمد صوت الإنسان العادي في جزائر ما بعد الاستقلال، المواطن الذي يعيش تحت وطأة الأزمات اليومية من بطالة، فساد، قهر اقتصادي وضياع الحلم الوطني، ويمثل فئة واسعة من الشعب الجزائري الذين لم يجلب لهم الاستقلال تحسنا في أوضاعهم بل تحولوا إلى ضحايا أنظمة الفساد الجديدة (المهمشين).

1 فيصل الأحمر: العشاء الأخير لكارل ماركس، دار العين للنشر، الإسكندرية، ط1، 2024، ص 177-178.

ألبير فيرمي: فيرمي ليس مستعمرا ساذجا يعتمد فقط على القوة العسكرية، بل على إدارة دقيقة للعلاقات مع الأهالي، زرع الانقسامات واستغلال الخلافات الداخلية لصالح بقاء النظام الكولونيالي كما يعرف فيرمي جيدا كيف يستغل ضعف النخب المحلية وكيف يتفاوض مع من يخدم مصالح فرنسا حتى بعد الاستقلال في علاقة تبعية ناعمة ومستترة.

ثالثا: نقد العقد التنويري

مما لا جرم فيه أن القراءة الثقافية للنص الأدبي الذي يستنطق المكون التاريخي سرديا يرمي إلى أن تأويل المعطيات التاريخية التي انطلق منها النص الأدبي لتنوير الحاضر بالرجوع إلى الماضي، وهذا ما جسده الكاتب في روايته باستحضاره لشخصية "ماركس" التاريخية، التي تعرض أفكاره لحملة هجومية شرسة من طرف الثقافة الغربية، لأنه كشف مزاعمها الباطلة، وأفكارها المزيفة للتاريخ، الخادمة لمصالح الدول الكبرى في العالم على حساب باقي الدول. وخير دليل على ذلك استفتاح الرواية بطرح أسئلة حول التمثيليات المسيئة للعرب من طرف فرنسا الاستدمارية التي حاولت إقصاء العرب من التاريخ، وبنسب أبشع الصفات لهم. كما جاء على لسان "ماركس".

"العرب..

لا أحد يحبهم.

هل سأتمكن من التعاطف معهم

وهل أبقى المرض داخلي ما يكفيني من قوة التعاطف مع الغير لكي أتمكن من الرأفة لحالهم.

من الصعب على شخص مثلي هو وريث عصر الأنوار في جل خانات دماغه أن يحب العرب. فالقرن الثامن عشر محا كل أثر للعرب على المدونات الحضارية [1] فـ "ماركس" يقر بأنه ابن الحضارة الغربية المتبنية للفكر التنويري الذي تمخضت عنه سلسلة من الحملات الاستعمارية، وجرد

1 ينظر: الرواية، ص 06.

العرب من كل صفات الحضارة والتمدن، واستخدام المعرفة في غير ما وجدت له، حيث رسم صورة مشوهة عن العرب ووصفهم بأنهم همج أعداء الحضارة.

لقد كشـــف "ماركس" مزالق الفكر التنويري، إلا أن المرض لم يبق له القوة للتعاطف مع العرب، لأن معركته الفكرية الطاحنة التي خاضها ضد قيم المجتمع الأوروبي استنفذت كل جهده.

أشار الكاتب على لسان "ماركس" إلى فكرة تسخير المعرفة لخدمة السلطة وهذا ما جاء به الفيلسوف الفرنسي "ميشال فوكو"، الذي بين تورط الفكر التنويري في طمس فضل الطب العربي على الطب الأوروبي. "ابن سينا الذي كانت جيبني مغرمة بذكره مرتبطا بمرحلة الأنوار التي أبعدت ذكره من برنامج تدريس الطب بشكل غريب" [1]؛ فالحضارة الغربية قامت بفضل الحضارة الشرقية في كل الميادين عن طريق النقل والترجمة، لكن الفكر التنويري المريض لا يعترف إلا بوجود الحضارة الغربية، ولا ينسب المعارف إلى أصحابها (الحضارة الشرقية)، وهذا ما جعله يطمس كل معرفة سبقهم إليها العرب، ويزعمون أن الغرب هم أصحاب الفضل والمعرفة في كل المجالات، بل إن فلاسفة الفكر التنويري وصلوا إلى ذرة الإجرام الثقافي عندما روجوا لمعلومة خاطئة تقول بصفر مخ الإنسان الشرقي مقارنة بمخ الإنسان الغربي، وهكذا تكالب علماء الغرب مع رجال السياسة لخدمة المد الإمبريالي رغبة منهم في السيطرة على الجزائر التي وجد فيها الآخر الأوروبي جوًّا مشمساً قلما يتوفر في أوروبا ذات الجو البارد الكئيب.

وهكذا فضحت الرواية خبايا الفكر التنويري من خلال شخصية "فيبري" المتناقضة الشغوفة بالحديث عن حقوق الإنسان في كل المحافل، لكنها تغضُّ البصر عمدًا عمّا يجري في أرض الجزائر. كما فضحت هذه الرّواية الشخصية التنويرية بصفة عامة "هل علينا أن نقول للتاريخ والأجيال التي تأتي من بعدنا ونحن ورثة أهل الأنوار، نحن الذين نزهو بتسمية الإيلومياتي ILUMINATÉ (المتنورون). إن دورنا في التاريخ لم يتجاوز التلاعب بالسياسة لخدمة المصالح المالية وأننا نحن أول

1 الرواية، ص 06.

من غلَّب المصلحة الاقتصادية على المثل الأخلاقية العليا التي مات الناس لأجلها، والتي حوَّلتنا إلى الجهة المركزية في العالم؟"[1]

فالفلسفة الغربية الرامية لنشر الفكر التنويري والقائمة على الحرية والعدالة ونشر المعرفة في مظهرها اهتمَّت بالمصلحة الاقتصادية وأهملت الجانب الأخلاقي في باطنها، وهذا ما اوقعها في مسالك وعرة يصعب الخروج منها، مما أدى إلى ظهور الثورة الصناعية التي تسعى إلى التوسع الاستعماري على حساب البلدان الضعيفة.

استخدم الكاتب في الرواية شخصية الطبيب الجزائري الذي نشأ بين أحضان الحضارة الأوروبية، هذا الطبيب "محمد شوليي" شاءت الأقدار أن يكون طبيب "ماركس" وهذا ما جعله يتأثر بأفكاره، وأبدى معارضته لما يحدث بالجزائر، "كان مقالا كثير الجدل فيه ميل صوب العمال والبسطاء والدفاع عن حقوق الأهالي، فيه إحصائيات حول المرضى الذين دفنوا قبل أن يتم فحصهم، فيه أرقام حول مداخيل الأهالي، قانون الشغل الحالي والتفاوت الكبير بين أجرة الفرنسي والمسلم اللذان يعملان في المنصب نفسه، نقص ضمانات العمل، سوء ظروف العمل في الحقول. كان مقالا محررا بطريقة غربية قرأه ماركس مرتين حتى شعر بالتعب "[2].

كانت الصحافة الفرنسية صماء بكماء، لا تجرؤ على التفوه بكلمة حق لأنها كانت متورطة مع السلطة في جرائمها، فجاءها هذا المقال فاضحا لحقيقة الوضع السائد في الجزائر.

في ختام العشاء وضع رجال السياسية والمفكرين والمثقفين اليد في اليد وخلصوا جميعا إلى أن الاستعمار هو عملية تطهير حضاري للأجناس الهمجية حسب زعمهم.

1 الرواية، ص 61.

2 المصدر نفسه، ص 74-75.

رابعا: الافتتان بالشرق

كانت زيارة "ماركس" إلى الجزائر موحية بافتتان الأوروبي بالشرق فـ"ماركس" شأنه شأن كل أوروبي مولع بشمس الشرق وسحره الذي فيه شفاءٌ للأسقام، "كتب ماركس الجملة متأملا السحر الذي التقطه منذ مشاهدته الأولى في الجزائر "لو بوتي كولون" المعمر الصغير LE PETIT COLON هل كان نصا لموباسان؟ أم أنه كان اقتباسا لبعض ما كتبه لمارتين عن زيارته إلى الشرق"[1]؛ فصورة الشرق عند "ماركس" تحمل كل معاني السحر والافتتان الذي ينجذب إليه كل فرد أوروبي، وجد في طبيعة الشرق الساحرة ما لم يجده في أوروبا، وهذه الصورة نقلت إلى الغرب عن طريق الأدبيات الغربية وكتب الرحالة التي وصفت العالم الشرقي بدقة وهذا ما أقره ماركس بنفسه عندما اعترف أنه أبصر صورة الشرق بمنظار غربي.

خامسا: مسألة التاريخ الكولونيالي

حاول الكاتب في الرواية تصويب مسار التاريخ الرسمي الذي سعى إلى مغالطة الرأي العام وجعل موقف "ماركس" من الاستعمار الفرنسي للجزائر يتسم بالضبابية، فجاءت الرواية مسجلة لتاريخ معاد ردت به على التواريخ الرسمية التي تسترت على جرائم الاستدمار الفرنسي في الجزائر وحقيقته، كما تسترت على الموقف الحقيقي لـــــ "ماركس" الذي استهجن بشدة ما يتعرض إليه الشعب الجزائري في بلاده من ظلم وعدوان من طرف الاستعمار الفرنسي الغاشم، فـــ "ماركس" خلال زيارته العلاجية إلى الجزائر نجده كثيرا ما يدخل في نقاشات ساخنة مع الأوروبيين الموجودين في الجزائر بغية إيصال الصورة الوحشية الاستعمارية للرأي العام ، وكشف النوايا الخبيثة للحضارة الغربية اتجاه الشرق.

"الشمس عندكم لا تبخل أبدا.

1 الرواية، ص 49.

– الجزائر كلها أرض شديدة الكرم سيدي سترى ذلك بأم عينيك.

– تلك حال المستعمرات دائما إذا ما تأملتها العين النهمة للمستعمر.

– راودته الفكرة ولكنه يرد قولها. لم يكن يخشى هيغل كان يتأمل وجه مضيفه الجميل المتناسق وهندامه المستوي، البدلة البنية الأنيقة، الياقة الباريسية ذات الشراشف، القبعة البنية الوبرية المنقطة بالأسود"[1].

لم يرد ماركس أن يجهر بمعارضته للسياسة الفرنسية منذ أول يوم وطأت فيه قدماه الجزائر، ف "ماركس" صاحب الفكر التحرري غير مستعد للتراجع عن أفكاره ومبادئه رغم الإغراءات التي عرضت عليه، رغم تخبطه أول زواجه في الفقر الذي جعله عاجزا عن توفير حبة دواء لأولاده. فالذي يضحي بفلذة كبده في سبيل إرساء دعائم الفكر التحرري لا يمكن شراءه بشيء تافه من الدنيا، أو بعرض زائد، وهذا ما جعل "ماركس" بوقا ناطقا في الحق لما يحدث في الجزائر، ومستخدما الرمزية في كثير من الأحيان كلما تعذر عليه التصريح، "كنت استكشف المكان سمعت صوتا فحاولت إلقاء نظرة، قد تكون قطة أو يكون فأرا، الجزائر بلد تكثر فيه الفئران"[2]، فـ "ماركس" في هذا المقطع يشبه الاستعمار الفرنسي بالقطط الذين يصطادون الأهالي، وينغصون عيشهم حتى صاروا فئرانا تقتاتهم القطط الفرنسية المتعطشة للدماء، وهذه سنة فطرية جُبل عليها الأوروبيون الذين يحفظون قواعد لعبة القوي والضعيف جدا.

تطرق "ماركس" في حديثه إلى الصراع الطبقي غير المألوف في الجزائر، حيث أن الإدارة الفرنسية سلبت الأراضي في الجزائر من ملاكها وجعلتهم عبدا يخدمون هذه الأرض دون أخذ حقهم منها، وهذا ما دفعهم إلى سرقة المحاصيل لدفع الجوع عن أهلهم، وكانت ضريبة السرقة

1 الرواية، ص 11.

2 المصدر نفسه، ص 11.

باهظة الثمن تستوجب الإعدام، بالإضافة إلى قطع رؤوس الأهالي الذين يتهمون ظلما وزورا دون بينة.

"أليست هذه حالة غير مسبوقة في الصراع بين السيد والعبد وفي ضبط العلاقة بينهما؟" [1].

بلغ الاستعمار الفرنسي في الجزائر ذروة البشاعة والحقارة والوحشية التي لم يعرف التاريخ لها مثيلا من قبل، فالاستعمار الفرنسي في الجزائر جوع الأهالي بشدة حتى دفعهم إلى سرقة أرضهم، وسلط عليهم عقابا جائرا يصل إلى إزهاق الأرواح، هذا الاستعمار الذي تفنن في ظلم الجزائر فتحول من استعمار إلى استدمار، ليصل من وراء تجويعه للأهالي إلى عرض الخبز مقابل الصليب، فمن ترك دينه يحصل على قطعة الخبز ومن تمسك بدينه مات جوعا.

أشـــار الكاتب في الرواية عدة مرات إلى مرض "ماركس" الذي حال بينه وبين الكتابة عن ظروف العمال المزرية في الجزائر، "ستقول لي كل هذا ولكنني سأقول لك إنها حالة فريدة تحتاج مني عمرا لم يعد المرض يمنحني إياه كي أكتب عن خصوصيات البروليتاريا الجزائرية.

أبقى مستغربا من عدم اندلا ع ثورة عارمة في هذه البلاد"[2].

عندما وقف "ماركس" على الواقع المر الذي يعيشه العمال تحت وطأة الاستعمار الفرنسي تنبأ باندلا ع ثورة جزائرية ضد المستعمر الغاشم لأن الظلم في البشرية أذان بخراب العمران، كما استغرب من عدم قيام الجزائريين بهذه الثورة "تراه الخوف من آلة الاستعمار التي رأوا جيدا ما يمكنها فعله في الثلاثين سنة الأخيرة؟ تلك الثورات التي تحدثنا عنها سواء هنا أم حتى في الهند كان ايقافها

1 الرواية، ص 120.

2 المصدر نفسه، ص 119.

يمر دوما بدرجات عالية من القسوة. أفكر في كتاب جديد عن الجزائر أسميه نقد العقل الاستعماري، أفكر فيه جيدا ولكن الصحة قد تخونني"[1].

إن الاستعمار الفرنسي للجزائر خلط أوراق ماركس الذي حاول مراجعة مبادئ علم الاجتماع من خلال تأليف كتاب جديد يفضح فيه جرائم الاستعمار، ويكشف حقيقة عقليته التي لا تعرف سبيلا إلى الرحمة، ولكنه كان متخوفا أن يمنعه مرضه من ذلك لأنه كان متيقنا بأن الاستعمار هو ابن لقيط أنجبته الرأسمالية، والوقوف في وجه المد الاستعماري يعني المجابهة المباشرة مع أبناء الرأسمالية، وهذا ليس بالأمر الهين ولا اليسير.

كتبت الرواية تاريخا مضادا للتاريخ الرسمي الذي كتبه المحتل الفرنسي وطرحت أفكار "ماركس" المدفونة المناهضة للاستعمار، والجور المسلط على الطبقة الكادحة في الجزائر.

سادسا: المثقف والسلطة

حملت الرواية نموذجا للمثقف المعارض للسلطة وكانت شخصية "ماركس" خير من مثل هذه المعارضة والصراع القائم بين المثقف والسلطة، لتعمل السلطة جاهدة على إقصاء أفكار "ماركس" وتهميشها؛ لأنه وضع يده على الجرح حين قدم نقدا لاذعا للحضارة الغربية، وكشف نوايا الفكر التنويري الخبيثة، الذي يزعم إنارة طريق الشعوب عبر طريق نشر المعرفة، بينما يهدف في الحقيقة إلى إدخالها في نفق مظلم، ليتركها تتخبط بين براثن الجهل، حتى تسقط فريسة سهلة المنال في أحضان الحضارة الغربية الداعمة للاستعمار.

فضل "ماركس" معارضة السلطة والعيش فقيرا مغضوبا عليه، فكان نموذجا للمثقف الحر الذي أعلن تمرده على السلطة ورفضه لكل عروضها وإغراءاتها، فكلفه هذا التمرد موت أطفاله

1 الرواية، ص 104.

الثلاثة بسبب الفقر، وقلة الدواء "وصفت زوجته الأيام الصعبة في خطاب إلى صديق قالت: أطفالنا الثلاثة يرقدون على الأرض ونحن جميعا نبكي الملاك الصغير الذي كان جسده بلا حياة وهرولت والأسى في قلبي إلى مهاجر فرنسي... ورجوته أن يساعدنا للضرورة الملحة، فأعطاني في الحال جنيهين بتعاطف أخوي عميق، وقد استخدمت هذا المال في شراء كفن ترقد فيه طفلتي ألان في سلام"[1].

"أرغم ماركس" على السفر والترحال بسبب أفكاره المتأججة بين "ماركس" و"بسمارك" السياسي البرجوازي، "هكذا سيكون الأولاد أكثر استعدادا لعيش حياتهم اللندنية بعد أن منعنا بسمارك وكلابه من وطء الأراضي الجرمانية والأراضي الحليفة لها منعا باتا يعرضنا للشنق لو خالفناه"[2]، فتمرد ماركس على السلطة عرضه لعقوبة الطرد من ألمانيا وتهديده بالقتل وسبب هذه العداوة هو خوف "بسمارك" من أفكار "ماركس" الثائرة ضد الرأسمالية الانتهازية المستغلة للعمال.

مثلت شخصية الطبيب "شولي" أيضا الصراع القائم بين المثقف والسلطة "سيبعدونه عن الجزائر فقلت كل ما في وسعي، مستشارو الحاكم غاضبون جدا وصلتهم أخبار سيئة عن المناطق الثلاث هنا، الأهالي مستعدون للثورة في أي وقت، أؤكد لك مسيو ماركس أنني ما استطعت فعله وبطرق لا يمكنك تخيلها أصلا من أجل الوصول إلى تخفيف العواقب على الطبيب الشاب. وصلت الإدارة إلى أقصى حل فيما يخصه"[3]، فالسلطة تقرب من جنابها المثقف الذي يسيل مداده في سبيل خدمتها، والتعلية من شأنها وإخفاء جرائمها، لكن الطبيب "شولي" خذل السلطة الفرنسية التي نشا بين أكتاف جامعتها، وجعل قلمه سيفا أشهره في وجه فرنسا، واختار قول الحقيقة، وكشف جرائم الاستعمار في الجزائر، وبسبب هذه العداوة بين المثقف والسلطة ظهرت طائفة من المثقفين عرفوا باسم "جماعة الأساسيين".

---

1 ريوس: أقدم لك ماركس، تر: إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، (د.ط)، 2001، ص 23.
2 الرواية، ص 46.
3 المصدر نفسه، ص 157.

"كانت نشـــطة منذ عشـــرين ســـنة أو أكثر –جماعات ذات ميول ثورية– على الطريقة البرودونية وطريقة باكونين ويعملون كجماعة سـرية اشـتدت شـوكتهم على أيام شـوكة المقراني هنا بالجزائر، منذ عشر سنوات أو أكثر ساندوا الثورة كثيرا.

كانوا يوزعون مناشير صغيرة بشكل سري تتقصد إدانة ما تفعله الجيوش الفرنسية من نصف قرن أو أكثر من ذبح وتقتيل، وأكثروا الحديث عن قانون ســـلب ملكية الأراضـــي الذي أحدث هرجا كبيرا، ويمكن اعتباره السـبب المباشـر في مجموعة كبيرة من الثورات هنا وهناك. الخلاصـة أن الإدارة هنا لا تسمح حتى بالحديث عن الأمر"[1].

حملت جماعة الأســـاســـيين على عاتقها مســـؤولية الدفاع عن المظلومين والوقوف في وجه السلطة دون وجل إيمانا منها بمبادئها، مما أدى إلى فرض حصـار شـديد عليها "هناك حصـار كبير كان مســلطا عليهم، لم تكن عين الإدارة والأمن عليهم تنام قط. وانتهى الأمر بقوائم للمغضــوب عليهم، ثم بدأوا يعيدون توجيههم في مناصب عملهم شيئا فشيئا من أجل تفريق شملهم وهي طريقة ناجعة لمعاقبة الأخطر منهم"[2]؛ فالسلطة تخشى المثقف الثائر لذلك اتبعت سياسة تكميم الأفواه، وتقييد الحريات لإضعاف جماعة الأساسيين وتشتيت شملهم، خوفا من تنامي الوعي عند الشعوب وتزايد الحس الثوري، فسلطت عليهم كل أنواع التعسف والإقصاء.

1 الرواية، ص 97-98.

2 المصدر نفسه، ص 101.

سابعا: "العشاء الأخير" مأدبة الفكر الماركسي

"فكرة الطبقات والصـــراع الطبيعي التي تبني على الدعوة إلى هدمها جل أفكارك ليســـت جديدة على البشر، لهذا فهم يتقبلونها ويجدون لها حلولا طورا بعد طور ولا أريد أن أصدم حضرتك فأقول لك إنني كلما نظرت في التاريخ وجدت الناس طبقات"[1].

حاول الحاضـرون في هذه المأدبة إهانة "ماركس" واحراجه بكل السـبل، وحاولوا إقناعه بأن أفكاره تهدف إلى الوصـــول إلى المثالية التي يســـتحيل تحقيقها، وذلك بدعوته إلى تحطيم الطبقات الاجتماعية والاهتمام بالطبقة الكادحة أكثر من أرباب العمل، والقضاء على فكرة الملكية الخاصة، وتجسـيد فكرة الملكية الجماعية. ولهذا سـخر الحاضـرون من أفكار "ماركس" واعتبروها حلما يحتاج إلى قرون مديدة ليتحقق على أرض الواقع، لكنهم كانوا يحمدون الله عز وجل على جهل الحاضرين بحقيقة أفكار ماركس، "على أن الناس هنا إما جاهلون بك أو بأفكارك، أو متهيبون من سمعتك الدينية. لو قرأ الجميع كتبك لاقتيد أغلبنا إلى المقصـــلة ميســـيو ماركس"[2]. فالمســـتعمر كان يتمنى للشـعب المقهور أن لا يقرأ ما كتبه "ماركس"، ويبقى مشـغولا بالجري وراء لقمة العيش ودفع الجوع عن أطفالهم، لأنه كان يخشى من طوفان الشعب المستعمر، وانقلابه عليه.

وهكذا وجد "ماركس" نفســه في مواجهة مباشــرة مع أتباع الفكر التنويري الذي يهدف إلى التوســـع وتهميش الشـــعوب الواقعة تحت وطأة الاســـتعمار، ولهذا لم يســـتطع "ماركس" إيقاف الإمبريالية الأوروبية التي تستغل الشعوب، زاعمة أنها تحاول تمدين الآخر الهمجي الذي كان يعيش في البداوة والهمجية.

إن رواية "العشـــاء الأخير لكارل ماركس" جاءت لتمســـح الغبار عن أفكار "ماركس" التي شـوهتها الحضـارة الغربية، من خلال رمي التهم على شـخصـية "ماركس" الذي كان نموذجا يحتذى

1 الرواية، ص 166.

2 المصدر نفسه، ص 169.

به، وقدوة للمفكر الجزائري، والذي سخر كتاباته لنصرة الضعفاء والمظلومين والمهمشين، ومساءلة التاريخ الكولونيالي.

ثامنا: مسألة تاريخ الفلسفة وفلسفة التاريخ

بدأت الرواية بنقد "ماركس" للفيلسوف الألماني "هيجل" الذي كان من فلاسفة النخبة، لأنه كان يشغل منصبا مرموقا في الدولة، ما أعمى بصره وبصيرته على الفوارق الاجتماعية الموجودة بين أبناء المجتمع الواحد حسب فكرة الطبقية، وهذا عكس ما نجده عند "ماركس" الفقير الجائع الذي تجرع مرارة الظلم والفقر والجوع، وهذا ما دفعه إلى الانقلاب على السلطة وكشف جرائم الطبقية.

أشارت الرواية إلى حادثة غريبة تمثلت في تأسي "ماركس" في بداياته بـ"هيغل" لكنه استهجن أفكاره بشدة بعد تنامي الحس الثوري عنده، مما جعله يمقت فلسفة "هيغل" وينقده "هيغل الذي وصفته بأنه تماما مثل بحيرة فكتوريا بالنسبة إلى أخطاء التقدير إليه يضئ كل العالم الفلسفي ومنه ينحدر نهر "نيل" الخطأ أكبر أنهار التهافت البشري"[1]. فـــ "ماركس" يصرح بانتمائه إلى الفلسفة الهيغلية، ولكنه انقلب على "هيغل" فكان من السباقين الذين نقدوا أفكار "هيغل"، لأنه كان يظن "بأن الفلســفة تربح قليلا لو التصــقت أكثر بالعلاقات بين الناس أكثر قليلا على كل حال من عكوفها على العلاقات الجدلية بين الأقطار على مر الأزمنة" [2].

تحلى "ماركس" بجرأة فكرية لا يمتلكها إلا مثقف حر صارخ في وجه الظلم بالحق فوجه نقدا لاذعا لفلسفة "هيغل" والفلسفة الغربية بصفة عامة التي كانت تجسد فكرة الصراع الطبقي بامتياز، وطالب باحتلال الشيوعية مكان البرجوازية "منذ نصف قرن تريد كسر التاريخ، نهاية الإنسان،

1 الرواية، ص 17.

2 المصدر نفسه، ص 21.

البت الجذري مع الماضـــي، التخلص من التناقض البشـــري الذي تمثله البرجوازية خير تمثيل. كلها عناوين كنا نخافها في دخيلتنا، كنا نماشيك على وجل مع تشكك مستمر في نجاح المهمة"[1].

نقد الكاتب في الرواية أفكار الفلسفة الغربية، وأبدى نقمته على الأوضاع السائدة في الشرق (الدول العربية)، "الخطأ الكبير الذي وقع فيه "هيغل" كان الثقة في الدولة، والخطأ الكبير الذي وقعت فيه أنا هو الثقة الكبيرة في قدرة الوعي الشعبي على إحداث الثورة"[2]، فـ "ماركس" يكشف عن الخطأ الجســـيم الذي وقع فيه "هيغل"، والذي تمثل في ثقته العمياء في الدولة، وهذا ما جعله تابعا لها، ناطقا بما يمليه عليه المنصـب الذي يشـغله، فإذا أراد غير ذلك كان من المغضـوب عليهم الذي ستحلق فوق رأسه غمامة سوداء، كما كشف "ماركس" عن الفخ الذي وقع فيه هو والذي تمثل في ثقته الزائدة بوعي الشـعب الذي كان ينتظر منه ردة فعل إيجابية ضـد الأنظمة الغربية التي همشته وسلبت منه أبسط حقوقه، فإذا به يجد نفسه كمن يطلب الماء من السراب.

فالشعوب نومت وأدخلت في سبات عميق ربما لن تستفيق منه، وفي هذا إشارة إلى فشل الربيع العربي، وفشل الثورة البلشفية قبلها، لأن الوعي الشعبي يخطط للثورة ولا يخطط لما بعد الثورة، وربما تكون عواقب ما بعد الثورة أسوأ من عواقب ما قبل الثورة.

تطرقت الرواية إلى تنكر "ماركس" لكل الثورات التي قامت باسمه "كل ما أفعله هو أنني أحاول أن أتأمل سبب وقوفك ضد جل الثورات التي تشبه أن تكون تحقيقا لبرنامجك السياسي الذي نعلم أنا وأنت بأنه غير موجود، وأن وجد وسمي ماركسية فإنك تكون غير ماركسي كما قلتها وكتبتها من قبل.

1 الرواية، ص 18.

2 المصدر نفسه، ص 151.

لا تستطيع أن تكون ماركسيا لأن التاريخ الذي يتماشى مع الماركسية ليس جاهزا ولن يجهز إلا بعد مراحل عديدة لمعارك عديدة"[1].

اعترف "ماركس" بأن تجسيد أفكاره وتحويلها إلى واقع ملموس مازال هدفا بعيد المنال يحتاج إلى تخطيط وتريث، وهذا ما جعله يثور ضد كل الثورات والثوريين الذين تبنوا أفكاره، لأنه يراها مازالت لم تصل إلى مرحلة النضج الفعلي. "اليوم الموالي ليوم انتصار الثورة، الغالب هو أننا نستيقظ بعد الثورة فنجد أنفسنا نعيش في عالم ما قبل الثورة، كل شيء في الغد الجديد يشبه الأمس المغضوب عليه في كل شيء، الغد الأفضل يصنع من عجين الأمس الأسود، على ثوريي القرن القادم أن يفكروا في الأطر التنظيمية والقانونية لهذا الأمر، هذا ما كتبته في آخر مقال كتبته قبل مجيئي إلى الجزائر"[2]؛ فـ "ماركس" يرى بأن اليوم الجديد الذي سطعت شمسه بعد زوبعة الثورة يشبه تماما الأمس قبل اندلاع الثورة، مثله مثل من فسر الماء بالماء لأن الثوريين الذين قاموا بهذه الثورة لم يخططوا لها جيدا قبل القيام بها، ما جعلها ثورة غير ناضجة، وهذا ما عاشته كل الشعوب التي قامت في وجه الاستعمار لكنها لم تضع خارطة طريق مدروسة.

تاسعا: فضح ازدواجية القيم الغربية

كشفت الرواية الوجه الحقيقي للحضارة الغربية وهذا ما وضحه المقطع الآتي: "الإدارة جهاز سياسي تشريعي يقع تحت تصرف رأس المال كما يقول... من تراه يقول هذا الكلام... آه تذكرت... إنه أنت مسيو "ماركس"... ورأس المال الجزائري يهيمن عليه أبناء الحرام. تعلم جيدا أن جل الكولون من المساحين والمعارضين السياسيين الذي أريد ابعادهم من العاصمة، استجلبوا لعمران هذه الأرض أي لنهبها بلا مقابل. ماذا تنتظر من فاقد للأمل كمحكوم عليه بالسجن المؤبد؟

1 الرواية، ص 108.

2 المصدر نفسه، ص 175-176..

هم لن يعودوا إلى فرنسا ولو جروهم بالسلاسل، وهم أغنى الناس في فرنسا سواء فرنسا القارية أم فرنسا المستعمرة. لهذا فهم يؤثرون في السياسة بقوة كبيرة يشترون دمها داخل البرلمان، لديهم أموال قارون وقارون في هذا المنظور رجل من فرنسي الجزائر"[1].

أشارت الرواية إلى فساد الأنظمة وعلى رأسها النظام الفرنسي الذي يتحكم فيه أصحاب المال وأرباب الأعمال، مما جعل الإدارة الفرنسية مجرد دمية يحركها أصحاب الأطماع الذين يسعون إلى تحقيق أطماعهم في الجزائر. فالمال الجزائري وثروات الجزائر سيطر عليها أبناء الحرام الفرنسيين – كما وصفهم الكاتب– لأن فرنسا كانت لا ترسل إلى الجزائر إلا حثالة المجتمع الفرنسي من مجرمين ومساجين وخارجين عن القانون لتخويف الأهالي، وبث الرعب فيهم من طرف همج، مدعية في ذلك أنها تحاول تمدين الهمجية الجزائرية، وتخليص الفرد العربي من الوحشية المتأصلة فيه، لكن الكاتب فضح في روايته هذه التناقضات وكشف أصحاب الهمجية الحقيقية.

لم ترسل فرنسا إلى الجزائر مجرميها فحسب بل جاءت بطائفة كبيرة من المناوئين السياسيين الذين كانوا يعارضون السلطة ويعرقلون مشاريعها الاستغلالية، قصد إراحة السلطة الفرنسية من شرهم من جهة، ومن جهة أخرى نقل شرهم إلى الجزائر. فالذين جاءت بهم فرنسا إلى الجزائر غير مستعدين لمغادرة أرض الجزائر مهما كلفهم ذلك، لأنهم وجدوا فيها ملاذًا لممارسة إجرامهم الذي قد يعرضهم لعقوبة المؤبد أو الإعدام في بلادهم، بينما يباح لهم كل ذلك في أرض العرب، خاصة في الجزائر أرض الشمس الدافئة التي افتتن بها أبناء الغرب على اختلاف جنسياتهم، وحلموا بالعيش فيها. فطالما كانت الجزائر ومازالت أرضا تنبت ما لا ينبت في غيرها، وهذا ما جعل الغرب يتربص بها السوء في كل حين.

لقد كانت الازدواجية الغربية من أبرز تجليات الخطاب ما بعد الكولونيالي في الرواية، ففي الوقت الذي يتحدث فيه الغرب عن الحرية والحضارة وحق الشعوب يمارس الاحتلال الفرنسي

1 الرواية، ص 96.

أبشع صور العنف في الجزائر، وهذا ما جعل الغرب في نظر "ماركس" يفعل عكس ما يقول "الحرية في باريس شيء والحرية في الجزائر شيء أخر"[1]، ففي حوار "شولي" مع "ماركس" وضح "ماركس" الفرق بين حرية المواطن الفرنسي في بلاده الذي يجب عليه أن يتقيد بقوانين الدولة، بينما المعمرين الذين أحضرتهم فرنسا إلى الجزائر يتمتعون بالحرية المطلقة في أفعالهم وتصرفاتهم، فهم جاؤوا أصلا لممارسة جرائمهم المحظورة في بلادهم دون زاجر أو رادع يضع حدا لذلك.

عاشرا: الزمان والمكان كأدوات للمقاومة

وقف الكاتب في رواية العشـــاء الأخير لكارل ماركس على رمزية المكان، "توقفت العربة بكارل ماركس أمام الفندق الجديد فيكتوريا راق المنظر للضيف الكبير لمدينة الجزائر فقرر تغيير محل إقامته من فندق الشرق إلى إقامة فيكتوريا"[2].

استثمرت الرواية الزمان والمكان لتوازن بين الحضور الفرنسي في فندق "فيكتوريا" والجدلية بين الثقافة الأوروبية والواقع الجزائر، فالجزائر تعيش معيشـــة ضـــنك في الوقت الذي كان الغرب يتغنى بالحرية التي كانت عنده مجرد شعارات رنانة لاتسمن ولا تغني من جوع، ولا يحق لها أن ترى النور على أرض الواقع.

ذكر الكاتب في الرواية الفضـاءات المغلقة مثل فندق" فيكتوريا"، والفضـاءات المغلقة توحي عادة بالانقباض والإضمار وعدم الوضوح، وهذا ما نلمسه في الصراع القائم بين السلطة الفرنسية والشعب الجزائري، الذي يعيش حالة اللا استقرار والضيق النفسي، بسبب ممارسات الاستعمار في بلاده، كما توحي بالإضمار والإخفاء لأن فرنسا كانت تحاول إقناع الرأي العام بأن سبب تواجدها في الجزائر هو تهذيب الفرد العربي من همجيته ووحشـــيته، وأخفت حقيقة وجودها هناك، والمتمثلة في نهب واستنزاف ثروات البلاد دون أدنى حق مشروع.

1 الرواية، ص 97.

2 المصدر نفسه، ص 07.

تميز الكاتب في الرواية بالفطنة الأدبية، فذكر فندق "فيكتوريا" هذا المكان المغلق الذي يشير إلى تكبيل الحريات وسلب الحقوق وهذا واقع الشعب الجزائري صاحب الأرض المغصوبة من طرف الاستعمار الفرنسي، فكان فندق "فيكتوريا" اسما مستعارا حل مكان لفظة تقاطع الفضاء المغلق في الرواية مع الفضاء المفتوح ممثلا في الشارع الجزائري الذي يدل على حمولة دلالية كبيرة، فالفضاء المفتوح كثيرا ما يدل عن الانفراج والانفتاح، و"ماركس" تنبأ بثورة شعبية جزائرية عظيمة تقف في وجه المستعمر المستبد، لأن الحرية عروس مهرها الدماء، والحرية تؤخذ ولا تعطى، و"ماركس" يرى أن الشعب الجزائري الأبي لا يمكن له أن يبقى جريحا أسيرا مغصوب الحقوق.

إن تقاطع الفضاء المغلق مع الفضاء المفتوح أو الواقع المفتوح في الجزائر شكّلا معا همزة وصل وجسرا متينا بين هيمنة الاستعمار وسيطرته على الشعوب، والمقاومة الفكرية المحلية، لأن في الزمن الذي اشتد فيه ظلم المحتل الغاشم للأهالي كانت المقاومات الشعبية الجزائرية تطبخ على نار هادئة، وتنتظر الضوء الأخضر الذي يسمح لها بالانطلاق، وكان هذا لا مناص منه حيث تتابعت المقاومات الشعبية في الجزائر في مختلف ربوع البلاد.

يشير الفضاء المفتوح أيضا على التغيير وهذا ما أثبتته الثورة التحريرية المجيدة، فبالرغم من وقوع الجزائر تحت وطأة الاستعمار ردحا من الزمن إلا أن هلال الاستقلال بان، وشمسه بزغت بعد أن ظن العرب والعجم أن طرد فرنسا من الجزائر حلم يصعب تحقيقه لكن الشعب الجزائري قال في الأخير كلمته العليا، وجعل فرنسا وأبناءها هي السفلى ، وخرج يجوب شوارع الجزائر بعد الاستقلال مرددا في العراء عبارات تثبت رسوخ قدمه في العقيدة وعلو كعبه رغم إذلاله من طرف السلطات الاستعمارية بكل الطرق ممثلة في قوله "يا محمد مبروك عليك الجزائر رجعت ليك".

وصـف الكاتب في الرواية فندق "فيكتوريا"، فأول "ما راقه في الفندق حجمه الصـغير، بناء جديد نسبيا بطراز قديم، بدا له أنه قدر ذلك التصميم مرارا وبدا له أنه طراز قد مر به في إنجلترا لا في باريس رغم القرابة المنطقية بين طرازي الجزائر وباريس أكثر من القرابة مع الانجليز"[1].

أعجب الكاتب بتصـميم فندق "فيكتوريا" المصـمم بطراز قديم وهذا التصـميم صـادفه قبل ذلك في إنجلترا واحتار من هذا التصـــميم الإنجليزي الموجود في الجزائر، رغم أن العلاقة بين الجزائر وباريس أقوى وأقرب من العلاقة الموجودة بين الجزائر وإنجلترا.

تعمد الكاتب في الرواية إظهار الوجه الحضـاري للجزائر قبل الاسـتعمار، فكشـف جماليات الجزائر فيها، ليمرر إلى الرأي العام رسـالة مبطنة تبطل مزاعم فرنسـا التي أوهمت العالم بأنها دخلت إلى الجزائر بغية تمدين الهمجية العربية التي يجسـدها أبناء الشـرق. "المكان هنا جميل خارج غرفة خليج البحر الأبيض المتوسـط، ميناء الجزائر العاصـمة والفيلات مرتبة في المدرج متسـلقة التلال يوحي بلوحات الروكورو، أخاديد تحت التلال التي تستعلي تلالا أخرى إلى غاية نهاية أعالي الجزائر حيث تتفشى الغابة بسرعة وبلا تردد"[2].

وفي الأخير يمكن القول أن رواية "العشـاء الأخير لكارل ماركس" هي رواية تنبش في الجراح لكنها تسير نحو التمكين من خلال الوعي واللغة والتاريخ البديل.

توظف الرواية تقنية العشـاء الرمزي، حيث تلتقي شـخصـيات متعددة تمثل أنماطا فكرية وسـياسـية متباينة لتدور بينهما حوارات معمقة تعكس التوترات القائمة بين الرأسمالية والاشـتراكية وبين العدالة الاجتماعية والنظام الاقتصادي العالمي المعاصر، ومن خلال هذا البناء الحواري الرمزي يسائل النص الرمزي جدوى الأفكار الماركسية في عالم يتسم بتعقيداته الجديدة التي فرضتها العولمة، واتساع الفجوة الطبقية

1 الرواية، ص 07.

2 المصدر نفسه، ص 49.

إن استحضار كارل ماركس في هذا العمل لا يمثل مجرد توظيف سردي لشخصية فكرية معروفة، بل يعكس محاولة أدبية لإعادة قراءة المشروع الماركسي من منظور نقدي معاصر يطرح أسئلة جوهرية حول مصير الإنسان في عصر رأس المال المهيمن، وهكذا تتجاوز الرواية حدود التخييل السردي إلى أفق التأمل الفلسفي والنقد الاجتماعي مما يجعلها نصا غنيا يصلح أن يكون موضوعا للبحث الأكاديمي والتحليل النقدي.

الخاتمة

الخاتمة

وفي ختام بحثنا الموسوم بـ "تجليات الخطاب ما بعد الكولونيالي في رواية العشاء الأخير لـــكارل ماركس" للكاتب الجزائري فيصـــل الأحمر ، والذي كشـــفت الرواية فيه عن مدى انخراط النص الروائي الجزائري المعاصـــر في مســـاءلة آثار الاســـتعمار وتمثيل الهويات المهمشـــة، ومحاولة اعادة بناء الذاكرة الجماعية وفق منظور نقدي يعيد الاعتبار للتجربة المحلية ويحررها من سطوة المركزية الغربية.

جاءت هذه الرواية لتعيد رســـم ملامح الواقع ما بعد الكولونيالي من خلال تعرية البنى الخطابية والسياسية والثقافية التي خلفها الاستعمار، سواء تلك التي تتجلى بشكل مباشر أو من خلال مظاهر التبعية الفكرية والثقافية.

اتضح من خلال التحليل أن الكاتب لم يركز فقط على سرد وقائع تاريخية أو عرض شخصيات نمطية بل لجأ إلى توظيف أقنعة سردية ومرجعيات رمزية متعددة تتيح للنص أن يتفاعل مع القارئ على مســـتويات أعمق، فيطرح اشـــكاليات الســـلطة والانتماء والهوية والذاكرة ويعيد النظر في مفهوم "المثقف"، "التحرر"، "الهوية الوطنية" في السياق ما بعد الاستعماري.

كما تتقاطع شـخصـيات الرواية ولا سـيما شـخصـية "ماركس" و "محمد" و "ألبير فيرمي" مع تيارات فكرية وتاريخية مختلفة ما يجعلها منصات لتمثيل الصراع بين التبعية والتحرر وبين الوعي الزائف والوعي المقاوم.

لقد استثمر الكاتب شخصية "ماركس" بوصفها قناعا سرديا فاعلا يتيح له مساءلة التاريخ الاستعماري الفرنسي من زاوية نقدية تكشف تناقضات المشروع التنويري الغربي،ا إذ لم يكتفي الروائي بسرد الممارسات الوحشية التي ارتكبها الاستعمار الفرنسي في الجزائر بل فضح التواطؤ الأخلاقي والفكري للنخبة الفرنسية التي انحدرت من الفكر التنويري وباركت بل شرعنت أشكال العنف والقهر والاستعباد متناسية مبادئها حين اصطدمت بسطوة الشرق وسحره. وهنا تبرز الرواية كيف أن ذلك

الفكر الذي ادعى تحرير الإنسان وتكريس القيم الكونية انحرف في الواقع عن مقولاته واندمج ضمن الرأسمالية الإمبريالية المتوحشة متخفيا خلف شعارات "نشر الحضارة" و "تمدين الآخر" حتى صار التنوير ذاته أداة لشرعنة السيطرة.

وبهذا المعنى تكشف الرواية عن فجوات التاريخ البشري وعن استخدام المعرفة كوسيلة للهيمنة لا للتحرير حيث سقطت الشعارات الكبرى أمام أول امتحان حقيقي في أرض المستعمرين فـــ "المثقف الاوروبي" الذي إدعى التنوير نســـي تعاليمه لحظة مســـه دفء الشـــرق وتذوق طعم النبيذ الجزائري واستسلم لنوايا السلطة مخلفا وراءه أسطورة سقطت تحت مجهر النقد ما بعد الكولونيالي.

وبذلك تقدم "العشاء الأخير" لا بوصفها عملا سرديا فحسب بل كفعل مقاومة رمزي ونقدي يندرج ضـــمن مشـــروع ثقافي يســـعى إلى تفكيك الإرث الكولونيالي وتمثيل الذاكرة الوطنية بمضـــمون تحرري.

هي رواية تكتب ضد النسيان وتقاوم محاولات الطمس التشويه وتعيد للذات الجزائرية حضورها وفعاليتها في صياغة المعنى وبناء التاريخ وترسيخ الهوية.

وفي الختام يمكن التأكيد على أن رواية العشـــاء الأخير تعد من النماذج الســـردية المعاصـــرة التي تجسد تحولا لافتا في الرؤية ما بعد الكولونيالية في الأدب الجزائري حيث تغدو الرواية أداة نقدية ومجهرا كاشفا لما تراكم من عنف رمزي ومادي ولما اختبأ خلف أقنعة "التمدن" و "التحرر."

أخيراً نحمد الله على توفيقه لنا في إكمالنا لهذا البحث.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر:

7. فيصل الأحمر: العشاء الأخير لكارل ماركس، دار العين للنشر، الإسكندرية، ط1، 2024.

ثانيا: المراجع:

✓ المراجع العربية:

8. بغورة الزواوي، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، بيروت، 1999.

9. رامي أبو شهاب، الرسيس والمخاتلة (خطاب ما بعد الكولونيالية في النقد المعاصر النظرية والتطبيق)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2014.

10. محمد بوعزة، تأويل النص من الشعرية إلى ما بعد الكولونيالية (البلاغة وتحليل الخطاب)، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، بيروت، ماي 2018.

11. ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي (إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط3، 2002.

✓ المراجع المترجمة:

12. إدوارد سعيد، الاستشراق-المعرفة-السلطة-الإنشاء، تر: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1984.

13. إيهاب حسن، تحولات الخطاب النقدي في ما بعد الحداثة، تر: السيد إمام، دار الرافدين، ط1، بيروت، 2018.

14. جان فرانسوا ليوتار، في معنى ما بعد الحداثة (نصوص في الفلسفة والفن)، تر: السعيد لبيب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2016.

15.ريوس: أقدم لك ماركس، تر: إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، (د.ط)، 2001.

16.سارة ميلز، الخطاب، تر: عبد الوهاب علوب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2016.

17.شيلي واليا، إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، تر: أحمد خريس وناصر ابو الهيجاء، أزمنة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2007.

18.فريديريك كوبر، إشكالية الاستعمار نظرية المعرفة التاريخية، تر: كريستيان جان موجين، إدبايوت، باريس، 2010.

19.ميشال فوكو، حفريات المعرفة، تر: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ط2، بيروت، لبنان، 1987.

20.هومي بابا، موقع الثقافة، تر: ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2016.

رابعا: المجلات والصحف:

21.ديبيش شاكراباتي، دراسات التابع والتأريخ ما بعد الكولونيالي، تر: ثائر ديب، أسطور للدراسات التاريخية، ع3، يناير 2016.

22.رضوى عاشور، الصوت، فرانز فانون-إقبال أحمد-إدوارد سعيد، ألف مجلة البلاغة المقارنة، ع25، 2005.

23.عطيات أبو سعود، نيتشه وما بعد الحداثة، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، العدد 63، 2004.

24.محمد بن سباع، تحليل الخطاب عند ميشال فوكو، مجلة دراسات، منشورات جامعة قسنطينة 2 – عبد الحميد مهري، مج 5، ع 1، جوان 2014.

25.هويدا صالح، الصورة الروائية للمثقف، مجلة العربي، وزارة الإعلام بدولة الكويت، ع 657، أغسطس 2013.

الملاحق

فيصل الأحمر

فيصـــل الأحمر: (من مواليد 11 يناير 1973 ولاية تبســة بالجزائر)، روائي وشــاعر وأكاديمي جزائري، يُقيم في مدينة الطاهير بولاية جيجل. كان من بين أعضـــاء لجنة تحكيم جائزة الطاهر وطار للرواية في دورتها الأولى، نشر العديد من الدراسات والبحوث والنصوص في مجلات ومواقع جزائرية وعربية وعالمية. يشغل منصب أستاذ كرسيّ الترجمة والتيارات الفكرية بجامعة بومرداس قسم اللغة الإنجليزية بالجزائر.

مُهتم بالخيال العلميّ والفلسفة والدراسات الثقافية، كاتب مجرب مجدد متميز النبرة، تتسم جميع أعماله بطابع تجديدي تجريبي يجمع الأســـئلة الراهنة للكتابة مع هواجس فلســـفية وتاريخية وسياسية.

حاصل على عدة جوائز أدبية وعدة تكريمات.

له عدة كتب موزعة بين الرواية والشعر والترجمة والفلسفة والدراسات الثقافية.

بعض أعماله الروائية:

- وقائع من العالم الآخر (قصص من الخيال العلمي) (2002)
- رجل الأعمال (2003)
- أمين العلواني (رواية خيال علمي) (2008)
- ساعة حرب ساعة حب (2011)
- حالة حب (2015)
- النوافذ الداخليَّة (2017)
- ضمير المتكلم (2021)
- في البُعد المنسيّ (خيال علمي للناشئة) (2022).
- مخطوطة بيروت (2023)
- مدينة القديس أغسطين (2024)

ملخص الرواية:

تحكي الرواية قصة زيارة الفيلسوف "كارل ماركس" إلى الجزائر في شتاء وربيع سنة 1982، بغرض الاستشفاء من مرض رئوي، وتستدعي محطات مهمة من حياة "ماركس"، من خلال رسائل زوجته "جيني" المتوفية، وتنقل لنا ما تجاوزه التاريخ الرسمي الذي أشاع أن "ماركس" لم يصدر عنه أي موقف أخلاقي من الاستعمار، في حين أن الرواية أثبتت أنه لم يتجاهل جرائم الاستعمار الفرنسي في الجزائر .

الرواية في مجملها مأدبة فكرية عن أهم القضايا الفكرية التي سنها "ماركس" عن الطبقية، والشيوعية، ونقد الرأسمالية والبرجوازية الغربية.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

العنوان	الصفحة
شكر وعرفان	
الإهداء	
مقدمة	**أ – هـ**
الفصل الأول: مفاهيم تأسيسية حول النظرية ما بعد الكولونيالية	**7–26**
المبحث الأول: ضبط المصطلحات	**7**
أولا: مصطلح ما بعد الكولونيالية	**7**
تمهيد	**7**
1/ دراسة المستعمرات السابقة بعد استقلالها	**8**
2/ دراسة مستعمرات أوروبا منذ استعمارها	**8**
3/ دراسة جميع ثقافات المجتمعات أو الأمم	**8**
ثانيا: مفهوم النظرية ما بعد الكولونيالية	**9**
ثالثا: نشأة النظرية ما بعد الكولونيالية وتطورها	**11**
رابعا: مقولات ما بعد الكولونيالية	**14**
1/ الاستشراق	**14**
2/ دراسة التابع	**15**
المبحث الثاني: مفهوم الخطاب ما بعد الكولونيالي	**17**
أولا: مفهوم الخطاب	**17**
ثانيا: الخطاب عند ميشال فوكو	**19**
ثالثا: الخطاب عند إدوارد سعيد	**23**
رابعا: الخطاب ما بعد الكولونيالي	**25**

الفصل الثاني: تجليات الخطاب ما بعد الكولونيالي في الرواية	**44-28**
تمهيد	**28**
أولا: قراءة في العنوان	**29**
ثانيا: شخصيات الرواية كأقنعة سردية	**30**
ثالثا: نقد العقد التنويري	**31**
رابعا: الافتتان بالشرق	**34**
خامسا: مسألة التاريخ الكولونيالي	**34**
سادسا: المثقف والسلطة	**37**
سابعا: "العشاء الأخير" مأدبة الفكر الماركسي	**40**
ثامنا: مسألة تاريخ الفلسفة وفلسفة التاريخ	**41**
تاسعا: فضح ازدواجية القيم الغربية	**43**
عاشرا: الزمان والمكان كأدوات للمقاومة	**45**
الخاتمة	**50**
قائمة المصادر والمراجع	**53**
الملاحق	**57**
فهرس الموضوعات	**61**

الملخص:

يتناول هذا البحث الخطاب ما بعد الكولونيالي في رواية "العشاء الأخير لكارل ماركس" للكاتب الجزائري فيصل الأحمر، وهي رواية تستلهم السياق التاريخي والثقافي والسياسي لما بعد الاستعمار في الجزائر، وتعيد مساءلة السرديات الكولونيالية من خلال منظور تفكيكي نقدي يُعلي من صوت الهامش والمهمشين.

يندرج هذا العمل ضمن الأدب ما بعد الكولونيالي الذي يسعى إلى فضح آليات الخطاب الاستعماري وتفكيك تمثيلاته الرمزية، واستعادة الهوية الوطنية والثقافية للشعوب المستعمَرة. وقد اختار الكاتب شخصياته بعناية لتكون بمثابة أقنعة سردية تُحاكي صراعات الفكر والتاريخ والهوية، وعلى رأسها شخصية "كارل ماركس" التي تم توظيفها بصورة رمزية تتقاطع فيها الأبعاد الأيديولوجية مع البُعد النقدي، مما أتاح للرواية أن تستحضر الماضي الاستعماري وتنتقد امتداداته المعاصرة بشكل ساخر.

الكلمات المفتاحية: النظرية ما بعد الكولونيالية، الرواية، السلطة، المركز، الهامش.

Abstract:

This research addresses the post-colonial discourse in the novel The Last Supper of Karl Marx by the Algerian writer Faïçal Ahmed. The novel draws inspiration from the historical, cultural, and political context of post-colonial Algeria, reexamining colonial narratives through a deconstructive critical perspective that amplifies the voice of the marginalized and the oppressed.

This work falls within post-colonial literature, which seeks to expose the mechanisms of colonial discourse, deconstruct its symbolic representations, and reclaim the national and cultural identity of colonized peoples. The author carefully selected his characters to serve as narrative masks that reflect the struggles of thought, history, and identity, with the character of "Karl Marx" being employed symbolically to intersect ideological dimensions with a critical one. This allowed the novel to evoke the colonial past and critique its contemporary extensions in a satirical manner.

Keywords: Postcolonial theory; the novel; power; center; margin